مجموعة نقشجم العلميّة

إصدارة رقم (٥٨)

الأَسئِلَةُ النَّفسِيَّةُ وَالأَجوِبَةُ القُدسِيَّةُ

تأليف

السَّيِّد عبد الله الميرغني المحجوب

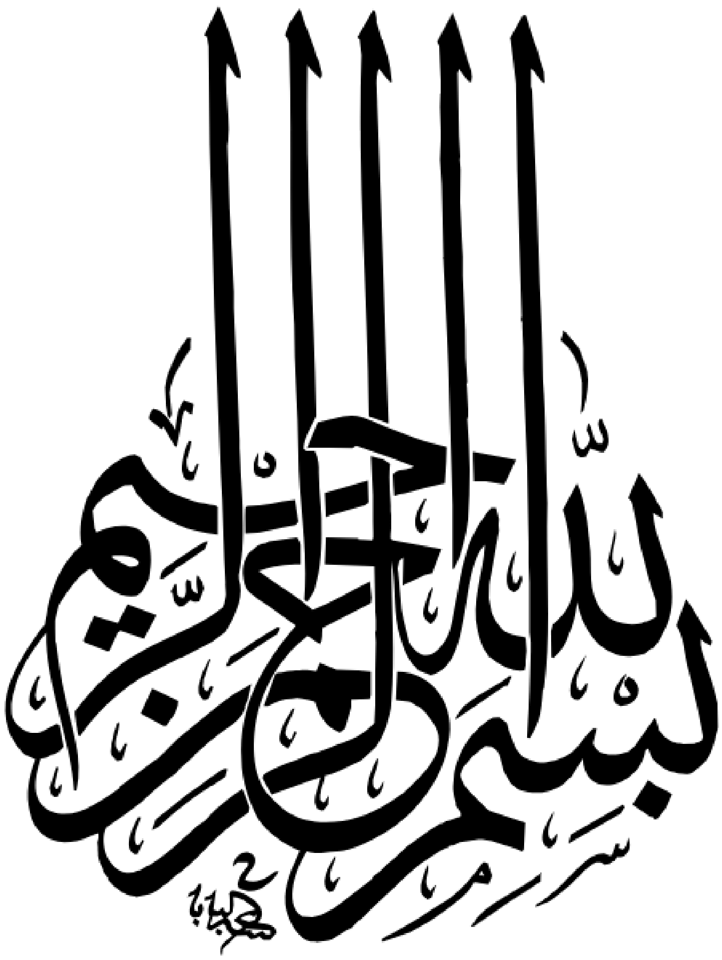
الأَسْئِلَةُ النَّفْسِيَّةُ
وَالأَجْوِبَةُ القُدْسِيَّةُ

تأليف

السَّيِّدُ عبدالله الميرغني المحجوب

صفر ١٤٤٥هـ - أغسطس ٢٠٢٣م

يمكنكم مراسلتنا، عبر البريد الإلكتروني: ngshjm@yahoo.com
أو عبر صفحة مجموعة نقشجم العلمية، على الفيسبوك: facebook.com/ngshjm


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه على آلائه، والصلاةُ والسلامُ على خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه وأوليائه. وبعدُ، يسُرُّ مجموعة نقشجم العلميّة إخراج كتاب [الأسئلة النفسية والأجوبة القدسية] للعلّامة الفرد السني والقطب الهني صاحب السر الموهوب السيد عبد اللَّه الميرغني المحجوب رضي اللَّه تعالى عنه ونفعنا بعلومه آمين، يتناول أسئلة وأجوبة يسألها نفسه ويسأله عنها غيره، ويُجيب عنها بنفسه، في شتى ضروب العلوم والمعارف العرفانيَّة.

قد اعتمدتْ مجموعة نقشجم العلميّة على إخراج هذا الكتاب على نسختين مخطوطتين: أحدها نسخة دار الكتب المصرية بالرقم: مجاميع ٤٧٤ رسالة ١٢، ٣٧ ورقة، بمسطرة ٣٦ سطرًا، ٢١×١٥سم، تاريخ نسخها ١٢٤٥هـ. والثانية نسخة مكتبة بورصة إنيبي التركية بالرقم: ١١/١٥٩٠، ناقصة الآخر، ٢٥ ورقة، بمسطرة ٢٤ سطرًا، ٢١×١٥,٤سم.

وكان عملنا في الكتاب: تفريغ النص من المخطوط، وإضافة عنوانين رئيسية بترقيم الأسئلة، وعمل تخريج للآيات والأحاديث بالضبط المشكول، وأقوال العلماء، وعمل ترجمة للأعلام ومعاني بعض المفردات، وفهرسة مواضيع للكتاب، وثبت المراجع والمصادر.

واللَّه سبحانه وتعالى نسأله بأن ينفع به المسلمين ويمنحنا القبول وصلِّ اللَّهُم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه بقدر عظمة ذاتك يا أحد.

ترجمة المؤلّف
السيد عبد اللّه الميرغني المحجوب

هو العلامة المحقق، الحجة المدقق، والمحدث الفقيه الأصولي الأديب، أبو السيادة، عفيف الدين، السيد عبد اللّه بن السيد إبراهيم بن السيد حسن بن السيد محمد أمين بن السيد علي ميرغني، الحسيني المكي الحنفي. ينتهي نسبه الشريف إلى سيدة نساء العالمين، وبضعة سيد المرسلين، سيدتنا السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد رسول اللّه.

ولد بمكة المكرمة، عام ١١١٩هـ، وبها نشأ وتربى في كنف أسرته الكريمة، التي عرفت بين أهل مكة بالعلم والورع، فحفظ القرآن الكريم في حال صباه، وعكف على تحصيل العلم، منذ نعومة أظافره، رضي اللّه عنه، فأخذ عن والده السيد إبراهيم، رضي اللّه عنه، وجده السيد حسن، رضي اللّه عنه، مبادئ العلوم الدينية واللغوية، كما أخذ عن عمه السيد محمد أمين، رضي اللّه عنه، صاحب التصانيف المفيدة، في الفقه والحديث، المتوفى عام ١١٦١هـ.

بعض شيوخه:

ومن تلقى عنهم بمكة المكرمة: العلامة المحدث شهاب الدين أحمد بن محمد النخلي الشافعي، المتوفى عام ١١٣٠هـ. والمحقق المحدث عبد اللّه بن سالم بن محمد بن سالم البصري، المتوفى عام ١١٣٤هـ. كما أخذ عن العلامة عبد الكريم بن خضر الهندي الحنفي، المتوفى عام ١١٤٣هـ. كما أخذ عن العلامة مفتي مكة المكرمة، القاضي تاج الدين بن عبد

المحسن بن سالم القلعي، الذي درس الكتب الستة بالمسجد الحرام، المتوفى عام ١١٥٤هـ. ثم أخذ عن الفقيه المالكي العلامة أبي عبد اللَّه محمد صلاح الدين البرسلي، المتوفى عام ١١٥٤هـ. كما أخذ عن العلامة الفقيه تاج الدين الدهان، المتوفى عام ١١٦٦هـ.

ثم اجتمع بقطب زمانه، السيد يوسف المهدلي، وكان إذ ذاك أوحد عصره في المعارف، فانتسب إليه ولازمه حتى رقاه، وبعد وفاته جذبته عناية الحق، وأرته من المقامات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فحينئذ انقطعت الوسائط، وسقطت الوسائل، فكان أويسيا، تلقيه من حضرة جده، صلى اللَّه تعالى عليه وسلم، كما أشار إلي ببعض ذلك، وظهرت كراماته، وبهرت إشاراته، وطار صيته في الآفاق، وصار كلمة اتفاق، ووفد إليه العارفون فوجا فوجا، وصار يترقى إلى مصاعد المجد الأعلى أوجا أوجا.

وقد عاش السيد المحجوب باكر حياته بمكة المكرمة، بين التدريس والإرشاد إلى طريق الرشاد، ثم انتقل إلى الطائف، ونزل بقرية السلامة، وذلك إثر فتنة جرت بمكة المكرمة، فآثر الابتعاد. وعكف السيد المحجوب على نشر العلم وتربية المريدين، وحمل لواء السنة المحمدية، داعيا إلى اللَّه بحاله ومقاله، فعاش مهابا عزيزا في ذاته، موقرا للعلم وأهله. قال عنه تلميذه مرتضى الزبيدي في كتابه [المعجم المختص]: ((ووفد إليه العارفون فوجا فوجا، وصار يترقى إلى مصاعد المجد الأعلى أوجا أوجا.

بعض تلاميذه:

من أبرز تلاميذه ابناه السيد محمد أبي بكر الميرغني، والسيد محمد يس الميرغني، المتوفى عام ١٢٥٥هـ، الذي عرض عليه منصب إفتاء مكة، فلم يقبله ورعا وزهدا. ومنهم الحافظ السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني، الشهير بمرتضى الزبيدي، المتوفى عام ١١٩٦هـ. ومنهم الشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد السلام الزمزي، المتوفى عام ١١٩٥هـ. والشيخ محمد بن زين بالحسن التريمي، المتوفى عام ١١٩٦هـ. والشيخ محمد بن أحمد بن حسن بن عبد الكريم الخالدي الشافعي، الشهير بابن الجوهري، المتوفى عام ١٢٠٥هـ، وهو الذي شرح كتاب [البدر المنير] للسيد المحجوب. والشيخ تاج الدين بن محمد سراج، الذي لازم شيخه كثيرا، ونسخ مخطوطاته، وبعد وفاته كتب له مناقبا، سماها [مواهب الغيوب في مناقب السيد المحجوب]، وغير هؤلاء خلق كثيرون.

تسميته بالمحجوب:

لأنه احتجب بداره ثلاثين سنة، وقد كانت العزلة عن الناس مفتاحا للمعرفة والعبادة والتفكر والاطلاع والتأليف. وقد أثمرت فترة العزلة، بين العلم وضروبه، نتاجا عظيما من المؤلفات الجامعة المفيدة، التي نافت عن الثمانين مؤلفا، اهتم في جلها بتربية المريدين على النهج الصوفي، كما هدفت مؤلفاته إلى إرشاد العامة، وتعريفهم بأصول العقائد والفقه، وأساس السلوك إلى الله تعالى، لا سيما وله طريقة موصلة إلى الله تعالى، وهي الطريقة الميرغنية.

قال عنه حفيده، الإمام السيد محمد عثمان الختم، رضي اللَّه عنه، في شرحه الكبير للراتب، المسمى [فيوض البحور المتلاطمة]: (كان هذا الأستاذ من أهل القرن الثاني عشر، من الأولياء العارفين، والعظماء المقربين، تصرف في عصره، وتحكم وظهر بالسطوة الإلهية، وتكلم، وله لسان في الحقائق عظيم، وله صولة على أهل عصره من الصالحين والأمراء، وغيرهم، ذو تحكيم. وله التآليف العديدة، منها في النظم نحو خمسة دواوين، ومنها تأليف في الحديث والتصوف، جمع بين الشريعة والحقيقة، يا فطين، وله إغاثات للمستغيثين به في ملمة، وإعانات في واقعة ومدلهمة. وله كرامات كثيرة جدا، حتى بعد موته، لم يحص لها عدة).

مؤلفاته:

الإيضاح المبين بشرح فرائض الدين، والأربعين حديث، والأسئلة النفسية والأجوبة القدسية، والأنفاس القدسية في بعض مناقب العباسية، والبشائر الحاتمة بأسباب حسن الخاتمة، والتحفة الظريفة في الصلاة على الحضرة الشريفة، والتوسلات الإلهية في الخلوات السمرية والجلوات السحرية، والجواهر الشفافية في بعض مناقب السيدة الصديقية، والجواهر اللمعة في فضائل الجمعة، والجوهرة النقطة في أن الكون نقطة، والدرة اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة، والزهر الفائق في الدقائق والرقائق، والسر العجيب في مدح الحبيب، والسلام والدعاء عند زيارة الحبر ابن عباس، والسهم الداحض في نحر الروافض، والعقد المنظم على

حروف المعجم، والفيوض الإلهية في الصلاة على خير البرية، والكوكب الثاقب، واللآلي المفردات في أذكار عرفات، والمعجم الوجيز من أحاديث الرسول العزيز، والمقاصد الفخرى في مناقب السيدة خديجة الكبرى، والمنن الكبرى من الله في بعض فضائل لا إله إلا الله، والموجز العزيز على المعجم الوجيز، والنسمات الأنسية في الأحاديث القدسية، والنفحات القدسية شرح الصلاة المشيشية، والنفحة العنبرية من المشكاة النبوية في آداب المعية، وإتحاف الحلفاء في مناقب الخلفاء، وإتحاف السعداء بمناقب سيد الشهداء، وأربعون حديثا في النكاح، وأربعون حديثا في الوصايا، وبحر العقائد منظومة في أصول الدين، وتحريض الأغبياء على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، وتنبيه الحق في حين الفرق، وجوامع الكلمات في تضمين الأحاديث الحكميات، وجوذاب القلوب لذكر علام الغيوب، وحاشية على جمع الفوائد، وحكم و معارف وأسرار ولطائف، وذات الجنب في معنى الذنب، ورسالة في جواب الاستفتاء عن هدم قبر أبي طالب وإسلامه أو عدمه، وزهر الرياحين من رياض الصالحين، وسباعيات الحكم، وسلاسة السلسبيل من مربى الزنجبيل، وسواد العينين في شرف النسبين، وشرح أبيات لابن عربي، وعدة الإنابة في أماكن الاجابة، وغاية الفوز والفلاح في أذكار المساء والصباح، وفرائض الدين وواجبات الإسلام لعامة المسلمين، وكنز الفوائد شرح بحر العقائد، ومجالي الأصول لمراقي الوصول، ومختصر المنتهيات، ومراقي الوصول إلى معالي الرسول، ومشارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار،

ومشكاة الأنوار في سيرة النبي المختار، ومعراج السلوك إلى ملك الملوك، ومنهاج الملوك إلى معراج السلوك، ونقطة نقط التحقيق في بيان مقالة الصديق، والبدر المنير، والتحفة المغطاة من الرحمة المعطاة، والتيسير في إثبات التدبير، والجوهر العالي في توحيد الغالي، والحكم الكبرى، والدر المتلاليء في توحيد المتعالي، و الدر المنثور في مناقب الخلفاء أولي البيت المعمور، والدر النظيم في توحيد العظيم، والروض الأمثل من المعنى الأول، والسر الأعظم في الصلاة على النبي الأكرم، والسفينة الصغيرة، والسفينة الكبيرة، والفروع الجوهرية في الأئمة الإثنى عشرية، والمراسلات المرغنية بين أحباب الغنية، والنجادة في الولادة، وإتحاف المتقين بمناقب المجتهدين، وإتحاف المجالس في نزهة الجالس، وإيضاح المقصود في تحقيق الشهود، وتدقيق التلوين في تحقيق التكوين، وتسلية الكبد الحراء بذكر أكباد فاطمة الزهراء، وتشطير إنما الكون ضياء، وجامع الشتات في ما تفرق من الأبيات، وجواهر القلائد لقانص الفوائد، ورفع الحاجب عن الكوكب الثاقب، وسلسبيل الخلان، وكشف الغطا عن زمن أهل الخطا، ولمع برق الألمعية على بيتي المعية، ومختصر لصحيح البخاري، ومناقب سيدنا عثمان بن عفان، ومنتهى السير في الاختصار.

وفاته:

توفي السيد عبد اللَّه المحجوب، رضي اللَّه عنه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، بالطائف، سنة ١١٩٣هـ، كما ذكره تلميذه الشيخ تاج الدين بن محمد سراج، والذي كان ملازما له، بل السيد المحجوب، رضي اللَّه عنه، قد كلفه بنسخ كل مخطوطاته، فقد قال في كتابه الذي ألفه، في مناقب شيخه: أنه رضي اللَّه عنه قد توفي ليلة الجمعة، لثلاث خلون من عاشوراء، عام ١١٩٣هـ، ودفن رضي اللَّه عنه بمسجده الملحق بداره، بعد أن حفر قبره، وهيأه بنفسه في حياته، وختم فيه القرآن سبعة آلاف ختمة، قدس اللَّه روحه، ونور ضريحه، ونفعنا اللَّه به وبعلومه.

كتبه / الشيخ سيف اليزل محمد أحمد

[مُقدّمة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي نفَّس النُّفوس المطمئنة بنفائس المواهب والمكاسب، ورَوَّح الأرواح المستكنة بروائح المطالب والمشارب، والصلاة والسلام على خير من في المشارق والمغارب، وعلى آله وصحبه ما أنهل وادق وأفل واقب.

وبعد، فيقول غمير بحار التَّقصير الدَّني، عبد اللَّه بن إبراهيم ميرغني، كان اللَّه له ولكُلٍّ وإن ومعتني، قد خطر بالبال جمع بعض من المقال، مما يجري في النَّفس من جواب وسؤال، فاستعنتُ باللَّه مُترجمًا له بـ[الأسئلة النفسيَّة والأجوبة القدسيَّة].

[السؤال الأول]

وقلتُ: سألني النفس: ما حقيقة اللَّه تعالى؟.

فقلتُ: هي معنى لفظ الحقيقة الذي هو عين الحقِّ، وإذا كان مقابلها وهو المجاز، والباطل مدركًا ولو بوجه ما كان معناها غير مدرك بنوع ما ليتحقق التَّضاد ويمتنع الاتحاد.

[السؤال الثاني]

وسألني: ما معنى معية اللَّه تعالى للأشياء؟.

فقلتُ: هي عين إحاطته سبحانه المُصرَّح بها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾[1]، وهذه الإحاطة الكلية هي الوحدة المطلقة الأحدية وبشهودها يضمحل السوى الموهوم، وينمحق في عين المعلوم.

[السؤال الثالث]

وسألني: ما بيان حديث: «لَوْ كَشَفَ عَنْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ لَأَحْرَقَ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ»[2]؟.

(١) سورة النساء الآية ١٢٦.

(٢) رواه مسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وابن ماجه في "سننه"، والبزَّار في "مسنده"، والديلمي في "الفردوس".

فقلتُ: بيانه لو رفع الله الحجاب عن المحجوب المانع له عن حقيقة عظمة المحبوب لأمحق كل ما سواه، لأن السوى كله بعض منتهاه.

[السؤال الرابع]

وسألني: ما تحقيق ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٣]؟.

فقلتُ: كُلَّ آنٍ هو في شأنٍ بالنسبة إلى الأكوان، وشأنه الذي عليه كان، متعالٍ عن تعاقب الأزمان.

[السؤال الخامس]

وسألني: ما معنى قول أبي يزيد[٤] قدَّس الله سرّه المجيد: خضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله؟.

فقلتُ: هو بحرُ الهيام التام في المحبوب العام، ولذا يغبطهم الأنبياء عليهم السلام، أو بحر البحور وهو الحقيقة المحمديَّة، وخوضها خاصٌّ بهذه الأمة العليَّة، كما لا يخفى على ذي المعارف السنية، وإيضاح ذلك أنه لو كان عدة سلاطين مثلاً وكان لهم سلطان

---

(٣) سورة الرحمن الآية ٢٩.

(٤) هو سلطان العارفين، أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، وكان جدهم شروسان مجوسيًا، ولد سنة ١٨٨هـ ببلدة بسطام بين خراسان والعراق، توفي سنة ٢٦١هـ عن ثلاث وتسعين سنة. روى عن سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه.

أعظم، وكانوا يجتمعون به لكان ذلك في أماكن وأزمنة مخصوصة، ولا يدخلون عليه مطلقًا سيما في خلواته، بخلاف أهله وخواص أتباعه.

ومن هنا يُعلم قصور ذوق من قال بفضل عائشة على فاطمة رضي اللَّه عنهما، لكونها في الجنة معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخلاف فاطمة فإنها مع عليّ رضي اللَّه عنهما، وهذا يؤدي إلى أفضليتها على الأنبياء عليهم السلام وهو غلط بلا كلام.

ومما قررته يتضح قول بعض أهل البيت: "إن منازلنا في الجنة وراء منازل الأنبياء وأعلى منهم". لأن الذرية تابعة للأصل في المزية لا في الفضل والرتب العليَّة، فلا يلزم أنهم أفضل من الأنبياء بذي الحيثية، فتدبّر في هذا التبيان المُكبّر، فلهو أعز من الكبريت الأحمر، إلا على أخص خواص البشر.

[السؤال السادس]

وسألني: ما الحق في قول بعض العارفين: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"[٥]؟.

فقلتُ: ما اقتضت الحكمتان كان فسواه غير أبدع مما كان، بل ما اقتضاه الذات والنعتان كان، فما في الإمكان غير ما قد كان في أزل المنَّان.

[السؤال السابع]

وسألني: ما حقيقة قول الجُنيد[٦] قدَّس اللَّه سره: "لَوْ أَقْبَلَ صَادِقٌ عَلَى اللَّهِ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُ لَحْظَةً، كَانَ مَا فَاتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَهُ"؟.

فقلتُ: لا شك إن الإمداد على حسب الاستعداد، واستعداد العارف ينمو في كل نَفَسٍ أكثر من ألوف السنين الماضية فإمداده كذلك، فإذا فوَّتَ ذلك فقد فاته أعظم من ذلك.

أو نقولُ: الإمدادُ بحسب فضل طول الجواد، ولا ريب أنه أفضل من ماضيه، فلا غرو وأن يفوته أجل مما حلَّ بناديه.

---

(٥) هي مسألةٌ قرّرها حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي.

(٦) أَبُو القاسم الجنيد بْن مُحَمَّد بن الجنيد: سيد الطائفة الصوفيَّة وإمامهم، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق سنة ٢١٥هـ، كان أبوه قواريريًا، وكان هو خزازًا، وَكَانَ فقيهًا عَلَى مذهب أَبِي ثور، صحب خاله السري والحارث المحاسبي، وأبا حمزة البغدادي، توفي سنة ٢٩٧هـ.

[السؤال الثامن]

وسألني: ما بال الناس يظهرون يفيدون ويستفيدون، وأنت تنفر وتنفر وتبعد وتكر؟.

فقلتُ: أنا لا أخلو من إحدى ثلاث: إما مُفرط أو مُخلط أو مُفرط، فالمُفرط يكفيه التفريط أفيزيد بالتخبيط، والمُخلط هو لنفسه مُفرط فكيف يورط، والمُفرط في الصدق لا يرضاه الآن الأخيار، فما بال الأبرار بل الأشرار.

[السؤال التاسع]

وسألني: ما للأولياء لا يظهرون فينفعون وينتفعون؟.

فقلتُ: إذا كان أخيار الزمان لا يرغبون في الإسلام والإيمان، فكيف يُرشَدُون إلى العرفان، ومن يوصلون إلى الإيقان، فالظهور إذن عين القصور، والخمول عين العبور.

[السؤال العاشر]

وسألني: ما ذوقك في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[٧]؟.

(٧) سورة الإنسان الآية ٥.

فقلتُ: إن المُبرِّين بمحبته السابقة يشربون من كأسها الدافقة، شرابًا من عذب جمال المحبوب، كان طبعها ساترًا للغيوب من أحوال القلوب ومواهب المطلوب، فهم مستورون دومًا سرمدًا، كما صرَّح بذلك خبر: «أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ أَحَدٌ غَيْرِي»(٨).

[السؤال الحادي عشر]

وسألني: هل يمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾(٩) إنذار للخلق أجمع؟.

فقلتُ: نعم، لأن غاية المقصود من هذا الوجود هو مقام الشهود، هنا وبعد اليوم الموعود، وما من أحد ولو يبلغ أقصاه في هذه الدار، إلا ويشغله عما هو في تلك الدار، فلذا عمَّم الباري بالإنذار، وبهذا يتضح سر حقيقة تسمية [الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين] أحد تآليف الغزالي(١٠) لا بما وضعه فيه، فإنه ربما يقصر، كما لا يخفى على المتدبر.

---

(٨) ذكره الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين".

(٩) سورة القيامة الآيتين ٢٠-٢١.

(١٠) هو حجة الإسلام، محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزَّالي بتشديد الزاي، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ، فقيه شافعي أصولي، متكلم، متصوف. رحل إلى بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر وعاد إلى طوس. من مصنفاته: "البسيط" و"الوسيط"؛ و"الوجيز"؛ و"الخلاصة" وكلها في الفقه؛ و"تهافت الفلاسفة"؛ و"إحياء علوم الدين".

[السؤال الثاني عشر]

وسألني: ما حكمة كون قصور الجنة كبارًا، وأنه يُعطى أقل أهلها منها «مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ»(١١) كما ورد، مع أنه يكفي الإنسان أدنى شيء من ذلك؟.

فقلتُ: حكمته أنه لما خرجت الأرواح من سجن الأشباح، عادت إلى ما لها من الإطلاق، فكان لا يناسبها إلا الأمور العظيمة، حتى تصير كأنها مطلقة، ولولا ما بها من الشبح لكان جزاؤها بلا حصر، وهذا حكمة تضعيف الثواب والعطاء بلا حساب، والتفاوت إنما هو بغلبة الشبح قوةً وضعفًا، ولهذا كان توسيع البرزخ بحسب قوة الروحانية وضعفها، فافهم.

وكان يتعجب من حديث: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»(١٢) بالنسبة إلى الأكابر، إذ لا قدر لها عند الزاهدين، فما بال المريدين بل العارفين بل الصِّدِّيقين، وإنما معناه على حسب حالهم خير لك من التجليّات البرقية، لأنها حُمْر النعم الحقيقية، إذ هي من طوالع نار ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾(١٣) في القضية،

---

(١١) رواه الطبراني في "المعجم الكبير"، والبيهقي في "شعب الإيمان"، والديلمي في "الفردوس".

(١٢) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود في "سننه"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير"، وابن حبان في "صحيحه"، والبيهقي في "السنن الكبرى".

(١٣) سورة طه الآية ١٠.

وإنما كان ذلك خيرًا من تجليات الله، لأنه رتبة أنبياء الله والكُمَّل من أولياء الله، إذ الإرشاد من أعلى رتب الرشاد، كيف لا وهو عين الربوبية، إذ الرب هذا معناه، وهو المقصود من مبناه، وعن هذا أجاب الخوَّاص الشعراويّ: بأن عوام الناس المحترفين أعلى مقامًا في الجنة من المجذوبين وأكثر ثوابًا، كما في [الجواهر] له فتدبَّر في هذا التفسير للحديث، واستغنمه فإنه أعظم حثيث، ولعلك لا تجده في غير كلامنا، ولا أعلم أهل هذا قاله فيه أحد من العارفين، أم من خصوصيَّات الفتَّاح المُبين لأحقر العالمين.

[السؤال الثالث عشر]

وسألني: ما سر طلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإجارة من النار كما في الأحاديث، مع أنه مجارٌ ومغفورٌ له الأوزار؟.

فقلتُ: إنما ذلك للتشريع أو لكمال الخوف الناتج من كمال العلم والعرفان، كما هو دأب أهل هذا الشأن، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١٤]، وكما قيل:

عَلَى قَدْرِ عِلْمِ الْمَرْءِ يَعْظُمُ خَوْفُهُ ... فَلَا عَالِمَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ خَائِفُ
فَآمِنٌ مَكْرَ اللَّهِ بِاللَّهِ جَاهِلُ ... وَخَائِفٌ مَكْرَ اللَّهِ بِاللَّهِ عَارِفُ

(١٤) سورة فاطر الآية ٢٨.

أو طلب الحماية من نار التجلي، الخاطفة للتحلي، المُصرّح بها ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، وإنما طلب الحماية منها كي لا تأخذه وتفنيه، كما فنى موسى بصعقه وتوليه، ومكث مدة يتبرقع على وجهه وفِيهِ، فطلب الثبات، حتى يكون في مقام البقاء من أجل الثقات، ولا شك أنه المقام الأعلى والأكمل الأحلى.

[السؤال الرابع عشر]

وسألني: ما الوليُّ الحقيقيُّ في زماننا؟.

فقلتُ: الولي المُوفّق والصِّدِّيق المُحقّق من زَهِدَ في الولاية بنوعَيْها، أما المعروفة فلا شك أنها متلوفة لكونها محروفة ومصروفة، لأنها عبارة عن الرياسة والتخليط، وذهاب الدين بالدنيا والتفريط.

وأما الحقيقة التي هي عبارة عن الاستقامة المُثمرة للكرامة، فكذلك إذا العالم اليوم لو رأوا من قد يفوت باستقامته الملائكة، وكراماته تربوا على رمل الأرض لما اعتقدوه، وما انتفعوا به، وما ظهر من ظهر إلا من عوج فيه، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١٥).

---

(١٥) سورة فاطر الآية ١٤.

ولذا اختفى الأولياء الصِّدِّيقون والأصفياء المُحققون، فتيقظ أيها الصادق فلا تأخذك البوائق، وتعوّقك العوائق، فاهجر الغفلة والنوم، واصدق في أنفاسك تلحق القوم، وتدبّر في أبياتي هذه، فما أجدرها بالحال:

اختل عقلي فصرت اليوم مخبولا   وصرتُ بين الورى بالخلط مقبولا
وحين كنتُ صدوقًا في معاملتي   ما كنتُ أدري بلى ما كنتُ معقولا
أفٍ لحين اقتضى نفق النفاق وما   اقتضى لنحو فَعول قُطُّ مفعولا

[السؤال الخامس عشر]

وسألني: ما تحقيق تفاصيل التربية والإرشاد؟، فإني قد تحيَّرتُ في ذلك، فأرى أُناسًا يُربُّون بالتسليك والتلقين وبالحال وبالسريان وغير ذلك، فاحترتُ في ذلك.

فقلتُ: اعلم أن الأولياء في التربية والإرشاد على قسمين:

قسمٌ بالقُرب وآخر بالبُعد، فالأول كما عليه الكثير من التلقين والتسليك بالرياضة والتأديب، وبالصحبة بإنعكاس الأنوار والاقتداء بالآثار وغير ذلك.

والثاني بسريان السر، وبصرف المريد لأسبابٍ، إما اعتمادًا على تربية الرب تعالى واكتفاءً بها وتأدبًا معه سبحانه، أو لكون المريد لا ينتج إلا بالبُعد، كقصة ابن قايد مع الجيلي رضي اللَّه عنهما[١٦].

أو لكون الشيخ حقير الصورة أو حسنها فيحجب ذلك المريد، أو لاختياره عدم الشهرة والانتساب إليه لكون الفعال غيره حقيقة، أو لكونه في مقام التذلل مُتبعًا لهواه مع مولاه، فإذا سلك المريد سلوكه لا يفلح.

أو لكونه يحجبه عن ترقيه أو يحجب أستاذه كذلك، أو لكونه مُسلمًا أمره لله فمولاه يتولاه، ويتولى تربية مريديه حتى لا يشتغل بهم عن اللَّه تعالى، أو لأسباب أُخر يعرفها أربابها، واللَّه أعلم.

---

(١٦) جاء في "الفتوحات المكيَّة" للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي: أن الشيخ عبد القادر الجيلي كان يعرف مقامات الرجال العارفين بالشم، وأنه شمّ محمد بن قائد فقال له: لا أعرفك، وكان ابن قائد يرى لنفسه مقامًا عاليًا، فعرف من إنكار الشيخ الجيلي له قصوره، فَعَلَتْ همته حتى صار من الأفراد.

[السؤال السادس عشر]

وسألني: ما بال الأولياء منهم من يعرف الغير من البُعد، ومنهم من لا يعرف ولا بالقُرب، ومن الأكمل من الفريقَيْن؟.

فقلتُ: اعلم أن الأولياء على ضربين: منهم من يشم الروائح، ومنهم من لا يشم، والأولون على قسميْن: من يشم من البُعد والقُرب، ومن يشم من القُرب.

وكُلٌّ منهما منه من يشم الآثار ومنه الصفات ومنه الذات، ومنهم من له ملكة التروحن، وهو التلبس بروحانية المتروحن منه، وهذا لا يكون إلا لأفراد الأفراد من أكابر الأكابر، الذي له المقام العدمي لا البرزخي، حتى لو تمكَّن صاحب هذا المقام لربما يمكّنه عدهم جميعًا من المبدأ إلى المعاد.

وهذه الملكة إذا غاص بها صاحبها عرف مقامات الخواص والعوام وأسرارهم، بل مراتب الأنبياء وتفاوتهم، وإن لم يمكنه الاستقصاء، ولا يقال ذكر الجنيد وغيره من الأكابر، إن مقام النبوة لا يمكن الاطلاع عليه أصلاً، إذ نهاية الأولياء في الولاية بداية مقام النبوة، لأن المتروحن إنما أمكنه ذلك بتلك الروحانية النبوية، كما إذا

خُلِع على العارف النعوت الإلهيَّة، صار كأنه الذات الربانية فبها ينطق وبها يسمع وبها يبصر كما ورد(١٧).

ومن هذا قال بعض العارفين: أدركتُ صفات اللّه كلها سوى صفة السمع. أو كما قال. وقال مالك(١٨) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بحث رؤيته سبحانه وتعالى: "لَمْ يُرَ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُ بَاقٍ، وَلَا يُرَى الْبَاقِي بِالْفَانِي، فَإِذَا كَانَ فِي الآخِرَةِ وَرُزِقُوا أَبْصَارًا بَاقِيَةً رُئِي الْبَاقِي بِالْبَاقِي".

ولكن هذه الحالة قلَّ ما تدوم، بل لا تدوم أصلاً، وهي أعلى مراتب الصِّدِّيقين وصاحبها يتفنن في مشاهد الكون أجمع، سيما بواردات النبوة لكنها مزلة قدم إلا لمن أُيّد، ولذا بلمع برقها على البعض ربما ادعى النبوة، وبها يتحقق معنى قول أبي يزيد: خُضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله. وقول ابن عربي(١٩):

عَقَدَ الْخَلَائِقُ فِي الْإِلَهِ عَقَائِدًا ... وَأَنَا اعْتَقَدْتُ جَمِيعَ مَا اعْتَقَدُوهُ

بل وما هو أعلى من ذلك كقولي:

---

(١٧) رواه البخاري في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، والبزَّار في "مسنده"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، والبيهقي في "الزهد الكبير".

(١٨) هو إمام الأئمة وإمام دار الهجرة، إمام المذهب المالكي، مالك بن أنس بن مالك، الأصبحي، ولد سنة ٩٣هـ بذي المروة بالقرب من المدينة، أخذ عن ثلثمائة تابعي، ألّف الموطأ في أربعين سنة، درّس وهو ابن سبعة عشر سنة، وامتحن في خلافة المنصور، توفي بالمدينة سنة ١٩٧هـ بالبقيع.

(١٩) الشيخ الأكبر أبو عبد الله محيي الدين محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الطائي الأندلسي الحاتمي، المعروف بابن عربي، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠ هـ، طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ. له تصانيف كثيرة من أشهرها: "الفتوحات المكية"، و"فصوص الحكم" وغيرها.

سَلَكَ الْأَنَامُ لِرَبِّهِمْ بِسُلُوكِهِمْ   وَأَنَا سَلَكْتُ جَمِيعَ مَا سَلَكُوهُ

ثم هذا الشم نوع من الكشف، وهو وإن قال الكثير أنه ما هو من شأن الكُمَّل كالكرامات، فليس ذلك على إطلاقه بل الكمال هو الجمع من كل شيء، سيما عند ضرورة الحال، كيف وقد يكون ذلك بلا اختيار، كما تكون الكرامات كذلك بلا اختيار.

[السؤال السابع عشر]

وسألني: هل تكون آية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٢٠] إلخ جامعة للضدين الثناء والذم بالمعنييْن عندك، كما هي عادتك في الكثير من أشباهها؟.

فقلتُ: هو كذلك، ولكن أقول لك على بعض المزايا التي خصَّني الله تعالى بها وله الحمد، وأظن أنها لم تطرد لأحد من الأولياء والعلماء، وهي إبراز الحقائق والدقائق من القرآن والحديث وغيرهما، بعبارة النص ووضعه اللغوي دون إشارته وذوقه الصفوي، ولنتكلم على الآية بهذا الطريق.

وهو أن الذم والملام هو ظاهرها بلا كلام، كما عليه كل خاص وعام، وأما ضده وهو الثناء فهو استفهام تقريري، ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أي

(٢٠) سورة الفرقان الآية ٤٣.

أعلمت يا محمد ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ﴾ الذي هو الله ﴿هَوَاهُ﴾ أي ما يهواه أي محبوبه الذي ليس له قصد سواه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ عن سواه حتى عن إياه، ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ بالسوى باستغراقه في محبة المولى، ﴿وَخَتَمَ﴾ أي طبع ﴿عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ بطابع يحبهم، فما شهدوا وسمعوا غير مُحبهم، ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فطلى بهاتيك الطلاوة من أثر تلك الحلاوة، فسلب كلتى الحواس بالأخماس والأسداس، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ﴾ لشهود الناس، ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ القابض للحواس ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في منّنا واصطفائنا وجذبنا واجتبائنا، أو في محبوبنا وأحبابنا، كيف أنعمنا عليهم فلا يتصرفون إلا بنا، فمن كان هذا شأنه كيف يخفى قدره وشأوه، أم كيف ينكر فعله وتركه، بل لا يكون من الحكيم إلا الحكمة، في كل فعل وكلمة.

فتدبَّر في هذا التفسير، وفي هذا المشرب الكبير، وكم لنا من هذا كثير، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، وهذا غير خاف على البصير، ولو نحى الصوفية نحونا هذا لاستغنوا عن إشاراتهم، ولما أنكر العلماء لعباراتهم، ولكن أتوا بالإشارات البعيدة، فرموا بكل مقالة وقصيدة.

وانظر على هذا المنوال كيف نقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾[٢١] أي هيَّئنا للسائرين من

---

(٢١) سورة الإنسان الآية ٤.

المحبين أحوالهم ﴿سَلَاسِلَ﴾ تجذبهم إلينا فلا يعرجون إلا علينا، ﴿وَأَغْلَالًا﴾ في أعناقهم فلا ترفع لسوى خلاقهم، والمراد بالسلاسل والأغلال أزمة جذبات ذي الجلال، وثقلات عطفات ذي الجمال، ﴿وَسَعِيرًا﴾ أي نارًا تلهب في قلوبهم، فلا تحن إلا لمحبوبهم.

[السؤال الثامن عشر]

وسألني: ما معنى قول السيد عبد القادر الكيلاني قدَّس سره في عوالم القطبية: "إن لها ستة عشر عالَمًا إحاطيًّا، الدنيا والآخرة عالم منها"؟. وقول السيد الشريف الأمجد الشيخ أحمد الرفاعي[٢٢] قدَّس سره: "لا يكمُل الرجل عندنا حتى يعرف ثمانين ألف أُمَّة، الدنيا والآخرة عالم واحد منها، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٣]"؟.

فقلتُ: اللَّه أعلم، وليس لي اطلاع كبير على المباسيط من كتب القوم، بل ولا أقل قليل، ولكنني أذكر ما يفتح به المولى الجليل على هذا العبد الذليل، كما جرت عادته سبحانه وتعالى في سائر تحقيقاتنا التي يكل عن إبرازها أكابر الأولياء، وذلك من فضل اللَّه علينا وعلى الناس، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٢٤].

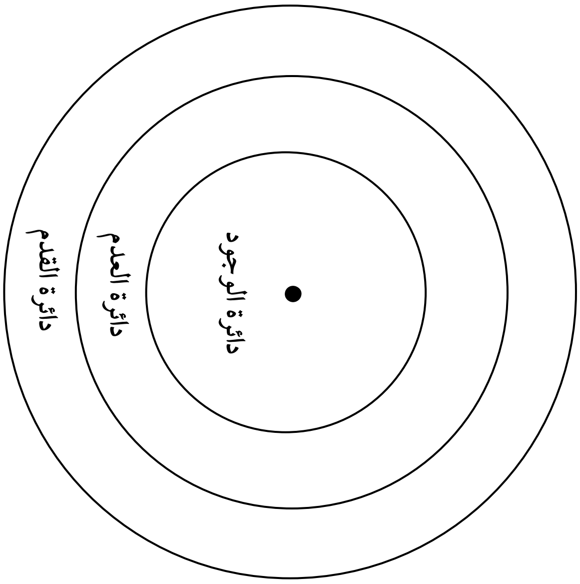
---

(٢٢) هو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد، الرفاعي المغربي الحسيني، ولد سنة ٥٠٠هـ، وهو شيخ ومؤسس الطريقة الرفاعية، وكان شافعيًا، وتوفي سنة ٥٧٨هـ.

(٢٣) سورة النحل الآية ٨.

(٢٤) سورة البقرة الآية ٢٤٣.

فأقولُ: اعلم أن الدوائر ثلاثة لا غير ونقطتها واحدة كهذه:



وهذه الدوائر تدور بالبيكار وهي ضرب مثال، فالدائرة الكبرى دائرة القدم المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾[٢٥]، والدائرة الوسطى دائرة العدم المشار إليها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[٢٦]، والدائرة الصغرى دايرة الوجود المجازي التي هي عالم الخلق والأمر.

والنقطة هي الحقيقة المحمدية وهي مدار الدوائر، بل منها ينشأ كل دائر، لأنك إذا وضعت البيكار وأردت إدارة مهما شئت من المدار لا يتم ذلك ولا يدار إلا بوضع البيكار، ومركزه هي النقطة ومنشأها منها، وهذه النقطة هي نون الإحاطة الالهيَّة وعينها، فلذا كانت عين الجميع وما ثم غيرها، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس

---

(٢٥) سورة النساء الآية ١٢٦.

(٢٦) سورة مريم الآية ٩.

إلا مَظهَرها ومُظهِرها. ولذا قال ذو الجلال: «لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضًا»(٢٧). وهذا مثال تقريب.

وأوضح منه أن الشمس هي النقطة، وفلكها هي الدائرة الصغرى، والعرش هو الدائرة الوسطى، والإحاطة الإلهيَّة هي الدائرة الكبرى، ولا شك أن الشمس بفلكها بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، كذلك العرش بما فيه بالنسبة إلى دائرة الإحاطة العظمى.

وعن هذا قلتُ في [الحِكم]: هذا الوجود قطرة في بحر قدرة المعبود، والعرش محتوٍ على عالمي الدنيا والآخرة، ومع ذلك هو كالحلقة في الدائرة العظمى في عوالمها، ومن يحصرها إلا عالمها، لكن من تعلَّق بالنقطة كُشف له من تلك العوالم ما قسم له العالم، ومن ذلك عوالم القطبية، والعوالم التي قالها شيخ الرفاعية، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٢٨)، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٢٩).

وإنما كان التعلق بالنقطة مُنتجًا لشيء من هذا لأنها هي المدار والدوائر، ومن نظر المرآة رأى بعض محتوياتها، وهذا أمر شرحه يطول، ولا يدرك طرفه إلا بشهود الرسول صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(٢٧) رواه الطبراني في "المعجم الأوسط". وأبو نعيم، والبيهقي، وابن عساكر، والحاكم.

(٢٨) سورة يوسف الآية ٧٦.

(٢٩) سورة المدثر الآية ٣١.

شهودًا ناشئًا عن جذبه الأعلى ووهبه الأغلى، فتعلَّق به لتفوز بقربه، وترى ما في حبه بوهبه، والله يتولاك بمنِّه.

تذييل في [الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية] للعلامة المناوي(٣٠): «يَا جبْريلُ إِنِّي خَلَقْتُ أَلْفَ أَلْفِ أُمَّةٍ، كُلّ أُمَّة لَا تَعْلَمُ أَنِّي خَلَقْتُ سِوَاهَا، لَمْ أُطلِعْ عَلَيهَا اللَّوح الْمَحفُوظُ، وَلَا صَريرَ الْقَلَمِ، إِنَّمَا أَمْري لِشَيءٍ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كَنْ فَيَكُونُ، وَلَا يَسْبِقُ الكَاف النُّونَ». رواه الديلمي عن ابن عمر.

وهذا يدفع الاستعظام لهذا المقام ويقلله وما فوقه في هذا المرام، كيف وهذا العد لا يفيد الحصر، مع كون قدر مولانا وقدرته أكبر، كما قيل عن كعب الأحبار: "لَا يحْصِي عَدَدَ الْعَوَالِمِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى"(٣١).

نكتة متممة: من هنا يُفهم أن حاء الإحاطة الإلهيَّة هي الحاء من اسم مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أن حاء مُحمَّد هي حاء حياة الماء الذي به كل شيء حي، الذي ميمه ميم مُحمَّد، والميم والحاء

---

(٣٠) هو مُحمَّد عبد الرؤوف بن تَاج العارفين الحدادي ثمَّ المَنَاوِيّ القاهري، زين الدّين، من كبار الْعلمَاء بِالدّينِ والفنون. لَهُ نَحْو ثَمَانِينَ مصنفًا، ولد سنة ١٠٣١هـ وعَاشَ فِي الْقَاهِرَة، وَتُوفِّي بهَا سنة ١٥٤٥هـ، من كتبه "كنوز الْحَقَائِق" و"التَّيْسِير" فِي شرح الْجَامِع الصَّغِير"، اخْتَصَرَهُ من شَرحه الْكَبِير "فيض الْقَدِير"، وَ"شرح الشَّمَائِل التِّرْمِذِية"، و"الْكَوَاكِب الدرية فِي تراجم السَّادة الصُّوفِيَّة"، و"شرح قصيدة النَّفس، العينية لِابْنِ سينا"، و"الْجَوَاهِر المضيئة فِي الْآدَاب السُّلْطَانِيَّة"، و"شرح الْقَامُوس الْمُحِيط"، و"اليواقيت والدرر" و"الطَّبَقَات الصُّغْرَى" وغيرها.

(٣١) ذكره ابن كثير في "تفسيره" وقال: نقله البغوي.

هما ما اجتمعا في اسمه تعالى المُحيي، وكذلك في اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محيي كما في [الدلائل].

وبهذا يتبيّن لك سر كون المحيط محاطًا وعكسه، إذ حاء الإحاطة محاطة بميمي المدار، الذي هو بمعنى المحاط في اسم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرجع المدير مدارًا به وعكسه.

وهذا مثل قولنا في [النخبة المهداة] تلخيص [التحفة المرسلة] في الكلام على آيتيْ الظرفية والإحاطة، فعاد كل ظرفًا ومظروفًا وما ذاك إلا للاتحاد عُرفًا ومعروفًا، فتفهَّم به الإشارة، واعبر عن العبارة فالغارة في المغارة والخبيئة في المحارة، والسلام.

[السؤال التاسع عشر]

وسألني: ما ظاهر آية: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٣٢]، وما باطنها على فهمك؟.

فقلتُ: تدبَّر أيها الناظر البصير في هذه الآية الشاملة للمذهبيْن، الجامعة بين الضديْن التخصيص والتعميم والخصوص والعموم، فظاهرها التخصيص للخصوص وباطنها التعميم للعموم، فالظاهر ظاهر والباطن أيضًا ظاهر، فهي كآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا﴾[٣٣] إلخ، فالتخصيص من قوله ﴿يَخْتَصُّ﴾، والتعميم م﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يقتص، فما يشاء إلا كل من شاء، فالمشيئة عمَّت جميع من به لمَّت، وهذا من بعض سر القدر الذي إذا كشف لأهل النار صاروا أرضى من أهل الجنة بها، لكن في هذا التعميم عين التخصيص عند الفهيم، إذ لا يرحم من لا يرحم كالواجب والمستحيل.

ولعل من هذا المشهد كره الحنفيَّة قول: "اللَّهُمَّ ارحم مُحمَّدًا"، وذلك إن كان من الأدب، فلربما يوجب العطب، لأنه إلى غير الصواب أقرب، وهل يستغنى عن الرحمة، من بعينيْهِ شحمة، كيف وهي لكُلٍّ بحسبه، وعلى قدره وسببه، وهل يستبد شيء بدون نفسه،

---

(٣٢) سورة البقرة الآية ١٠٥.

(٣٣) سورة الأعراف الآية ١٥٦.

وهو الرحمة بمعناه وحسه، له ولأبناء جنسه، وهل الصلاة عليه إلا رحمة من اللَّه إليه.

وكيف الكراهة لهذه الحكاية؟، ومولانا سبحانه ينوّه بشرفها في هذه الآية، فيا لله العجب، من شريف يُكره في جنب، فيا أهل الظاهر كيف اقتصرتم على الظاهر، هلا حويتم المظاهر، كيما تؤمنوا بالباطن والظاهر.

[السؤال العشرون]

وسألني: ما وجه جواز الجمع بين الأضداد، الذي أشرت إليه آنفًا، مع استحالة العلماء لذلك بالدلائل القطعيَّة؟، وما دليل أهل الباطن عليه؟.

فقلتُ: لا يحضرني لهم دليل، ولكن أقول بما يفتح به الجليل، وأرجو أن يكون هو الدليل، الذي لا محيص لأحد فيه لا كثير ولا قليل.

لا شك أن مولانا سبحانه منعوت بالتضاد على ممر الآباد، إذ هو المحيي المميت المنعم المنتقم، المعز المذل المعطي المانع الخافض الرافع، وهكذا في كل شيء وحين، لديمومية الصفات المستحيل تعاقبها، فما من ذرة من ذرات الوجود إلا وتشرق فيها

شموس الصفات، ولا تغرب أبدًا سرمدًا، فلزم التضاد على ممر الآباد، فكيف يستحيل ما هو واجب النفاد؟، ولا معقب لأمر رب العباد، فكل شيء في كل حين لابد فيه من اجتماع الأضداد، بحسب ما تجلَّى فيه مولى العباد، أدركنا ذلك أم لا، وإذا أمعن في هذا ذو بصيرة انكشف له ذلك بلا ريب، وعن هذا قلتُ:

رب العباد المنفرد بالايجاد   منعوت في الآباد بالأضداد
كيف المظاهر لا تكون كمثله   وهي الظلال ومآثر الأنداد
فالجمع للأضداد دومًا سرمدًا   لم يستحل بل واجب الإنفاد

فإن قُلْتَ: فعلى هذا لا معنى لقولهم: هذا جمالي وهذا جلالي وهذا كمالي، وهذا ظاهري وهذا باطني، وهذا ظلماني وهذا نوراني ونحو ذلك، مع كون كل أحد كذلك وجامع لكل ذلك.

قُلْتُ: ذلك إطلاق للنعت الأغلب عليه، كما يقال: هذا فقيه وهذا صوفي وهذا محدث وهذا نحوي ونحوه، مع أنه قد يكون جامعًا للكل.

وإن قُلْتَ: وعلى هذا تتفاوت صفاته تعالى قوةً وضعفًا وتأثيرها كذلك، وهو في التأثير لا يضر، أما في الصفات فلربما يأبى الأمر ذلك ولا يرضاه.

قُلْتُ: قد ورد التفاوت في أسمائه تعالى كالأعظم والعظيم والكبير ونحوه. وهو صريح فيما نحن فيه، وهو الظاهر لقوة سلطان بعض المظاهر، وما ذاك إلا لقوة تأثير الظاهر، وأيضًا كما أن نعوت المخلوق تتفاوت قوةً وضعفًا، كذلك نعوت الخالق لأن حكم المظهر تابع لحكم الظاهر فيه، لانعكاسه فيه.

فإن قُلْتَ: فأنت على هذا فضَّلت بعض الأسماء والنعوت على بعضٍ، كما يقول البعض.

قُلْتُ: هو كذلك بالنصوص، إذ لا معنى للأعظم والأكبر إلا هذا، وإنما احترز عن البعض لئلا يوذن بالانتقاص لغيره، ومعاذ اللَّه أن يجنح إلى هذا إلا أعمى البصيرة ولا كلام معه. فأسماؤه تعالى ونعوته عظيمة، وكلها جليلة قديمة.

[السؤال الحادي والعشرون]

وسألني: كيف حكم الدعاء بالمغفرة للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كرهه العلماء؟، فإني استشعرتُ مما مرَّ عدم كراهة ذاك المظهر.

فقلتُ: قد وضعتُ منذ سنين رسالة عظيمة في هذا المبحث، وسأسردها لك بلفظها لاختصارها وشريف اقتصارها، فأقولُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ المُنفرد بالكمال، الذي ما سواه باطل وخيال، وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّه شهادة مُتيقّن بأن كل ما سواه ملازم لوزره، إذ قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(٣٤)، وأشهدُ أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، شهادة معترف بأن كل أحد مُقصّر في إجابته لمن يقال له لبيك، إذ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»(٣٥). والصلاة والسلام على سيدنا مُحمَّد سيد الأنام، وعلى آله وصحبه الغُرّ الكرام.

وبعدُ، فقد كان يتردَّد في الخاطر الخليّ، أن أضع رسالةً في نوعَيْ الذنب الخفيِّ والجليِّ، لينكشف بها النِّقاب، عن مسائل كَثر

---

(٣٤) سورة الأنعام الآية ٩١.

(٣٥) رواه أحمد في "مسنده"، وابن ماجه في "سننه"، والنسائي في "السنن الكبرى"، وابن حبان في "صحيحه"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، والبيهقي في "السنن الكبرى"، و البيهقي في "شعب الإيمان".

فيها الإطناب، وغزر فيها الاضطراب، ولم يكُ ذلك إلا حين ما أراد اللَّه ما هنالك، وسميتُها: [ذات الجنب في معنى الذنب]. فأقول مُستعينًا به سبحانه ومُستمدًا من فيض حبيبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

اعلم أن الذنب والخطيئة والإثم والعصيان والإساءة والوزر والإصر ألفاظٌ مترادفة، ومرجعها إلى ثلاثة أنواع: لغوي وعُرفي وشرعي.

فمعنى الذنب ومرادفه لغة: فعل ما لا يليق بحسب الفاعل والمفعول معه، كما لا يخفى على من تدَّبر اللغة، ولذا قال البيضاوي في سورة القتال: "إن الذنب ما له تَبِعة ما كترك الأوْلَى".

وأما العُرفيّ: فمخالفة الفاعل له بحسبها أيضًا.

وأما الشرعي المصطلح عليه عند العلماء فهو: عبارةٌ عن الصغائر والكبائر، وإذا عرفت ذلك علمت أنه يُطلق على غيرهما لغةً وعُرفًا بل واصطلاحًا للإجماع على قبول القاعدة، التي قالها أبو سعيد الخرَّاز(٣٦) رضي اللَّه عنه وهي: "حسنات الأبرار سيئات المقربين".

(٣٦) هو أَبُو سعيد الخرَّاز نسبته إلى خرز الجلود، واسْمه أَحْمد بن عِيسَى، من أهل بَغْدَاد، صحب ذَا النُّون الْمصْرِيّ وسريا السَّقطِي وَبشر، وهو من أَئِمَّة الْقَوْم وَجلة مشايخهم، قيل إِنَّه أول من تكلم فِي علم الفناء والبقاء، مَاتَ سنة ٢٧٩هـ، وأسندَ الحدِيث.

فجوَّزوا إطلاق السيئة المرادفة للذنب وإخوته على ضدها وهي الحسنة، وخرَّجوا على ذلك كثيرًا من المسائل لا سيما من كلام العارفين، كقول رابعة العدوية(٣٧) رضي الله عنها: "استغفارنا يحتاج إلى استغفارٍ كثيرٍ"، وهو ظاهرٌ إذا نزلت نفسها منزلة العوام لكونه مع الغفلة، كما أوَّله به كثير من العلماء، وأما إن أنزلت نفسها منزلة العارفين شُكرًا للنعمة فهو أيضًا كذلك، لأنه بالنسبة إلى مقام الشهود الذي هو أقصى مُرادهم ذنب، وأي ذنب كما أولته بذلك، ولذا قال بعضهم: "الاستغفار من الذنب ذنب آخر".

وقال سهل(٣٨): "التوبة فرضٌ على العبد في كل نَفَس".

وقال العارف ابن الفارض(٣٩) رحمه الله تعالى:

ولو خطرت لي في سواك إرادةٌ   على خاطري سهوًا قضيت بردتي

وما ذاك إلا أن كل ما سوى مقام شهود المحبوب، فهو من أعظم الذنوب.

---

(٣٧) هي رابعة العدوية البصرية، الزاهدة، العابدة، الخاشعة، أم عمرو، رابعة بنت إسماعيل من العابدات الصالحات ، ولاؤها للعتكيين، ولها سيرة في جزء لابن الجوزي، توفيت سنة ١٨٠هـ، كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة.

(٣٨) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس، التّستري، ولد بمدينة تستر بخوزستان في سنة ٢٠٠هـ، وأقام بالبصرة حتى وفاته، نسبت إليه كثير من المؤلفات قيل أنها نقلها تلامذته عنه. توفي سنة ٢٨٣هـ.

(٣٩) هو سلطان العاشقين شرف الدين أبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المشهور بابن الفارض. ولد سنة ٥٧٦ هـ بالقاهرة، وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ. وله ديوان شعر عظيم.

وعن هذا قلتُ في كتابي [جواذب القلوب]: واعلم أن الاستغفار على ثلاثة أنواع: استغفارٌ عن الذنوب وهو للعوام، واستغفارٌ عن الطاعات ورؤيتها وهو للخواص، واستغفارٌ عن شهود كل ما سوى اللَّه تعالى وهو لأخص الخواص. وإذا فهمت هذا علمت أن العلماء مُحِقُّون في اجتهادهم في المسألتين الآتيتين، إذ هو بحسب اصطلاحهم ولا مانع من غيره.

أما المسألة الأُولى: فما وقع من اضطرابهم وتكلفهم في الجواب عما صدر في الكتاب العزيز والسُّنة الشريفة في شأن الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم من قوله سبحانه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾(٤٠)، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(٤١)، وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٤٢)، وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾(٤٣)، وقوله حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(٤٤)، وقوله عن موسى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾(٤٥)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا

(٤٠) سورة طه الآية ١٢١.
(٤١) سورة محمد الآية ١٩.
(٤٢) سورة الفتح الآية ٢.
(٤٣) سورة الشرح الآية ٢.
(٤٤) سورة الشعراء الآية ٨٢.
(٤٥) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

سُلَيْمَانَ﴾[٤٦]، وقوله عن يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٤٧]، وغير ذلك من القرآن، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ»[٤٨] الحديث، وقوله: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»[٤٩] الحديث، ونحوه من السُّنة، ولو أعادوا الأمر إلى ما مهّدناه سابقًا لما استشكلوا ذلك واستصعبوه.

وأما الثانية: فقد منعوا الدعاء بالمغفرة للأنبياء صلوات الله عليهم، بناءً على ما اصطلحوا عليه من قصر الذنوب على الصغائر والكبائر، فأما إذا كانت غير قاصرة على ذلك، فأي مانع مما هنالك، كيف وقد ثبت ذلك بالكتاب والسُّنة كما تقدَّم. والأثر: كقول عليٍّ رضي الله عنه في تشهده: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمُحَمَّدٍ وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ"[٥٠]

---

(٤٦) سورة ص الآية ٣٤.

(٤٧) سورة الأنبياء الآية ٨٧.

(٤٨) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، وأبو داود في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والبزّار في "مسنده"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الأوسط" و"الصغير"، والحاكم في "المستدرك"، والبيهقي في "سننه".

(٤٩) رواه أحمد في "مسنده"، ومسلم في "صحيحه"، وأبو داود في "سننه"، وابن السني في "عمل اليوم والليلة"، والنسائي في "السنن"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم في "المستدرك"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "سننه"، والخطيب في "تاريخه".

(٥٠) ذكره السخاوي في "القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع".

إلخ، وكقول الحسن البصري[٥١] رحمه الله تعالى في صلاته عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومغفرته ورضوانه.

فإذا كان طلب المغفرة ثابتًا في قوله سبحانه وقول نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقول بعض أصحابه وهو باب العلم، وبعض التابعين وهو سيدهم، وكان لذلك وجهٌ وجيه وهو طلب غفران ما لا يليق بمقامهم الشريف، وإن كان هو أجلُّ من أكمل طاعة كل ذي قدر منيف، فأي مانع من هذا.

والذي أقطعُ به وأدينُ اللَّه أنه لو تدبَّر هذا كل من قال بالمنع لما منع، ولرأى أن الأمر متسع إلا لقاصر في القصور، وجامد في القبور، والناس أحد رجلين إما قاصر على قول العلماء، أو عارف به وبمقال الحكماء، فالأول المنع به أليق، والثاني عدمه به حقٌّ. وأما العوام فلا يعرفون ولا يميزون، فهم فيما جاء مأثورًا مطلقون وفي غيره محجوزون، ويكفي هذا لذوي الإنصاف، ويشفي لأُولي الاعتراف.

(٥١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري، مولى زيد بن ثابت، وأمه مولاة أم المؤمنين أم سلمة، وهو إمام أهل البصرة، واسم أبيه يسار، الأنصاري مولاهم، ثقةٌ فقيهٌ فاضلٌ مشهورٌ، هو رأس أهل الطبقة الثالثة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وكان جامعًا عالمًا رفيعًا فقيهًا حجة مأمونًا عابدًا كثير العلم فصيحًا، توفي سنة ١١٠هـ. وقد قارب التسعين.

والحمد لله وكفى، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[٥٢]. قاله جامعه عبد الله بن إبراهيم بن حسن بن ميرغني الحسيني الحنفي، مُلتمسًا للدعاء، ومُقتبسًا لملء الوعاء، في ساعة واحدة من يوم الأربعاء رابع عشر ربيع ثاني من عام ألف ومائة وسبعة وخمسين [١١٥٧هـ]، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلَّم.

(٥٢) سورة النمل الآية ٥٩.

[السؤال الثاني والعشرون]

وسألني: ما معنى قول السيد الصمداني الشيخ عبدالقادر الجيلاني(٥٣) قدَّس سره الرباني: "ما الرجل من يوافق الأقدار، إنما الرجل من ينازعها"؟.

فقلتُ: قد أجبتُ سابقًا عنه، ثم رأيتُ في كلام الشيخ عليّ الخوَّاص(٥٤) للشعراوي(٥٥) رحمهما اللَّه تعالى ما يُشير إلى بيان ذلك، يعني ما الرجل من يوافق الأقدار في المخالفات، من ترك الأوامر وإتيان المنهيات، إنما الرجل من ينازع أقدار الشر بإتيان الطاعات والتثبت لها، فلا يحيد إلا إن أحيد، وهو جواب لا بأس به.

---

(٥٣) هو محيي الدين أبي صالح عبد القادر بن موسى عبد اللَّه، الحسني، ولد بجيلان أو كيلان وراء طبرستان سنة ٤٧١هـ. انتقل إلى بغداد شاباً فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد. وبرع في الوعظ والتربية وإرشاد الخلق، وهو شيخ ومؤسس الطريقة القادرية، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١هـ. من مؤلفاته: "الغنية" و"الفتح الرباني" و"فتوح الغيب" و"الفيوضات الإلهية".

(٥٤) هو ولي اللَّه الكامل العارف الراسخ الأُمِّيّ المحمدي السيد علي الخواص البرلسي، أخذ التصوف عن إبراهيم المتبولي وعن الشيخ بركات الخياط، جمع تلميذه عبد الوهّاب الشعراني ما كان يقوله في كتاب سماه "درر الغوّاص في فتاوى سيدي علي الخواص"، توفي في القاهرة في آخر جمادى الآخرة سنة ٩٤٩هـ ودفن في زاوية الشيخ بركات الخياط.

(٥٥) هو أبو المواهب عبد الوهَّاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشعراني أو الشعراوي، الشاذلي، فقيهٌ ومحدثٌ وبحر خضم في العلوم، ولد سنة ٨٩٨هـ بمصر ونشأ يتيمًا، وظهرت عليه من صغره علامات النجابة، فحفظ القرآن وكان يتلوه في ركعة واحدة في صباه، ودرس العلوم وهو صاحب التآليف الغزيرة في ضروب العلم تنوف عن الثلاثمائة. توفي بالقاهرة سنة ٩٧٣هـ.

لكن جوابنا هو الأجدر، بل عند أولي البصيرة أظهر، وذلك أن الأقدار: معلّقةٌ ومنجزةٌ، فالمعلّقة يمكن منازعتها لآحاد الناس فكيف لخواصهم، ففي الحديث: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»[٥٦]، وفيه: «لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٥٧]. فهذا صريحٌ في المنازعة والرد لكل أحد.

والمنجزة يمكن منازعتها بالتخفيف والتلطيف، لكل كثيف وظريف ولطيف، وعلى هذا الاستعظام لهذا المقام خصوصًا من كُمّل الرجال، لكن مراد السيد منه الإشارة إلى شأن عظيم من شؤون ذوي الكمال، المحبوبين المجابين في غالب الأحوال، المُشار إليهم بقول بعضهم: "إن لله رجال أهل قول وفعال"، فهم الذين ينازعون ذا الجلال، لا يفعل إلا ما اختاروه من الفعال.

في بعض الكتب الإلهيَّة: "يا بني آدم أطيعوني أطعكم، واختاروني أختاركم، وارضوا عني أرضَى عنكم، وأحبوني أحبكم، وراقبوني أراقبكم، وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون"[٥٨].

---

(٥٦) رواه الترمذي في "سننه"، والبزَّار في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير" والقضاعي في "مسنده"، والديلمي في "الفردوس".

(٥٧) رواه الطبراني في "المعجم الأوسط"، والحاكم في "المستدرك"، والقضاعي في "مسنده"، والخطيب في "تاريخه".

(٥٨) ذكره الشعراني في "الطبقات الكبرى"، والنبهاني في "جامع كرامات الأولياء".

واعلم أن شأن المحبوب من وراء الشئون في الظهور والبطون، وقس الغايب على الشاهد، ألا ترى محبوبة السلطان كيف ترد أمره، وتنازعه وتتحكم عليه وتتصرف في نفسه بشتم وضرب وإتلاف، بل تقول الأمر بيدي لا بيده، ويغار لها ولا يغار لنفسه، ولو أفنى ما عداها في رضاها لا يكترث به ولا يعبأ.

ومن هنا يقول بعض المحبوبين: "لو محقت الوجود ما وُخِذَت بذرة من ذلك المعدود". وكم شوهد من رجال كانوا سببًا لإتلاف آلاف، مع عدم اكتراثهم بذلك وعدم مبالاة الرب بهم.

وعن هذا قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي(٥٩) رضي الله عنه: "يبلغ الولي مبلغًا يقال له أصحبناك السلامة وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت".

وشاهد هذا الحديث الوارد في شأن أهل بدر من قوله: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اصْنَعُوا مَا شِئْتُمْ يَا أَهْلَ بَدْرٍ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٦٠). وما في الحديث الآخر من قوله: «وسواهم

---

(٥٩) هو السيد تقي الدين علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربيّ الحسني، شيخ ومؤسس الطريقة الشاذلية، ولد سنة ٥٧١هـ بقرية قرب سبتة، سكن الاسكندرية وصحبه بها جماعة، وتوفي بصحراء عيذاب بمصر في طريقه للحج سنة ٦٥٦هـ.

(٦٠) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، والشافعي في "مسنده"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، والدارمي في "مسنده"، وأبو داود في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير" و"الأوسط"، والحاكم في

همج رعاع ثم لا يعبأ الله بهم»[٦١]. وما في الآخر من قوله: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ هَذَا»[٦٢]، أو ما في قوله: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَصْحَابِي وَلَا نَصِيفَهُ»[٦٣].

ولا شك أن أُحُدًا لو كان ذهبًا ليَدي أهل الأرض كلهم لو قتلوا، فمجموع هذه العبارات وجميع هذه الإشارات سقطَ عن المحبوب المؤاخذات، بل ثبت له الإطلاق في هاتيك المباشرات، فتبصّر ولنفسك تبصر، ولها إن كنت محبوبًا تنصر.

فإن قُلْتَ: فإذا كان كذلك فلم سوَّى الحكيم في القصاص بين الناس، ولم يفرّق كمقتضى ما سبق من الكلام؟.

قُلْتُ: إنما لم يفرّق سبحانه لأن قيام القصاص ظاهرًا بالعبد الذي هو ولي الأمر، وليس إليه التفرقة بين مراتب الناس، لأنها أمر خفي لا يعلمه سواه، فكيف يكله إلى من عداه، ألا ترى في التفرقة الظاهرة كيف فرَّق لهم الحكم ووكّله إليهم، حتى لا يقتص من

"المستدرك"، والبيهقي في "سننه".

(٦١) ذكر مثله السمرقندي في "تنبيه الغافلين" عن سيدنا عليّ.

(٦٢) رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه"، والبيهقي في "شعب الإيمان".

(٦٣) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، وابن ماجه في "سننه"، وأبو داود في "سننه"، والترمذي في "سننه". والنسائي في "سننه"، والبزار في "مسنده"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والبيهقي في "سننه"، والخطيب في "تاريخه".

المسلم للحربي ونحوه، أما ما إليه فله التفرقة لديه، ولذا وقع لكثير من الأولياء من إتلاف آلاف مع عدم المؤاخذة في المشاهدة.

وأنت إذا تدبَّرتَ قصة الخضر(٦٤) وأخي الربيع ونحوهما انكشف لك الغطاء، لا سيما قصة الربيع ونحوها، وكيف أبرّ اللَّه قسمه وقدمه على حكم الحبيب الأعظم صاحب الشرع الأقوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن هذا قلتُ:

من كان باللَّه والرسول   فلا يخاف من غثاء الفضول
بل لا يخاف العلى ويمضي   تصريفه لو على رسول
انظر إلى الحكم في الربيع   وكيف أمضى على الرسول
بر الإله اليمين فيها   ورد شرع النبي البتول
هذا مع الحب مجتباه   كيف السواء فادر يا فضولي

واللَّه ما أحسن ما أتفق عليه من قول بعضهم(٦٥):

وإذا العناية صادفت عبد الشرا   نفذت على ساداته أحكامه

---

(٦٤) هو العبد الصالح، سيد الأولياء، مُرشد العارفين لطريق رب العالمين، أبو العبّاس، بليا بن ملكان، لُقّب بالخضر لأنه جلس على أرض بيضاء فصارت خضراء. وقال الجمهور: هو نبيٌّ وحيٌّ. وقد ذُكر اسمه في القرآن الكريم مع نبي اللَّه سيدنا موسى عليه السلام.

(٦٥) ذكرها ابن البيطار في "حلية البشر" في ترجمة الشيخ حسن بن الشيخ علي بن قويدر الأزهري الخليلي.

[السؤال الثالث والعشرون]

وسألني: ما حُكم من أتى بفاحشة من البضعة النبوية، فولد من ذلك، أَهَلْ يُهدر ذلك كما ظاهر عموم الشرع: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ»(٦٦)؟، أم هنا تخصيص؟، فإني محتار في شأن البضعة والإهدار.

فقلتُ: قد كنتُ في غاية الحيرة في ذلك، ولم أر شيئًا للعلماء هنالك، ثم فتح اللَّه منهجًا من المسالك، وبيانه أن أصل هذا الشأن بابتداء خلق سيد ولد عدنان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شك أن أصل الكون ومنبعه، كما تقرَّر في غير ما محرر، ولا شك فيما تفرَّع منه أنه مهدر أو غير مهدر كالنار والكفار وغير ذلك، والمهدر ما كان من أطراف الاكتساب، وغيره من ألباب الأحساب، فالحسب في كمال النسب، والمكتسب مقترب ومجتنب، فالقريب ما دنى والبعيد ما نأى، ومنه الأشقياء والفضلاء، ومنه ما نحن فيه من الأبحاث.

---

(٦٦) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وأبو حنيفة في "مسنده"، ومالك في "الموطأ"، والشافعي في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، وعبد الرزاق في "مصنفه"، وابن سعد في "الطبقات"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، والدارمي في "مسنده"، وابن ماجه في "سننه"، وأبو داود في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والبزار في "مسنده"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والدارقطني في "سننه"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "سننه"، والخطيب في "تاريخه".

ومن هذا البحث تبيَّن إهدار ولد الفاحشة البحث وهو مطابق للشرع الأقوم، والله أعلم.

فإن قُلْتَ: فعلى ما قررَّتَ؟، قد يكون بعض البضعة شقيًّا مع اقتضاء آية التطهير لعدمه؟، بل في الحديث: «إِنَّمَا سُمِّيَتْ فَاطِمَةُ لِأَنَّ اللَّهَ فَطَمَهَا وذُرِّيَّتَهَا عَنِ النَّارِ»[٦٧].

بل قد وردت أخبار بعدم تعذيبهم، حتى قال بعض العلماء ممن يعتقد في أهل البيت: "إن الله تعالى مُتجاوز عن جميع سيئاتهم، لا بعملٍ عملوه ولا بصالحٍ قدَّموه، بل بسابق عناية من الله تعالى لهم"[٦٨].

فلا يحل لمسلم أن ينتقص أعراض من شهد الله بتطهيره وذهاب الرجس عنه، وما نزل بناديهم من الظلم والجور نزل منزلة القضاء، الوارد من الله تعالى كالغرق والحرق ونحو ذلك، إذ لهم من الحرمة ما لسيدهم الذي نُسبوا إليه. إلى آخر ما في [نصيحة الشيخ زرُّوق[٦٩]] وغيرها.

---

(٦٧) رواه الحاكم في "فضائل فاطمة"، وابن عساكر، وابن شاهين، وذكره محب الدين الطبري في "ذخائر العقبى"، والقسطلاني في "المواهب اللدنية".

(٦٨) ذكره ابن عربي في "الفتوحات المكية"، والمقريزي في "رسائله"، والنبهاني.

(٦٩) هو الإمام العالم الفقيه المُحدّث الصوفي الولي الصالح الزاهد القطب، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الفاسي المغربي المالكي، اشتهر بزرُّوق وهو لقب أتاه من جهة جده لأمه الذي كان أزرق العينين. ولد سنة ٨٤٦هـ ونشأ يتيمًا، له شرحان على الرسالة، وآخر على "مختصر خليل"، وشرح على

قُلْتُ: لم تكن الشقاوة إلا فيما انفصل قبل الظهور من عالم النور، أما بعده فلإتمام الكمال، فلا يلحقه النقص بحال، ولم يزل في كمال.

وإن قُلنا: هذا ابن نوح لم يكن من أهله لفقدان فضله.

قُلْتُ: لا يقاس ابن نوح بابن جامع الفتح والفتوح، وأين الشبح من الروح؟، فقياس الثريا من الثرى قياس من عقله إلى وراء.

وبما قرَّرناه تتبيَّن نفي الشقاوة، وثبوت وقوع الولد من الفاحشة من أهل البيت على خلاف، ما حكاه بعضهم عن الشيخ ابن عربي من أنه لا يتصور من ذلك ولد لكون البضعة محفوظة، وهذا ينكره الواقع، فإنه لو وقع الاحتمال بوقوع ذلك من الرجل، لامتنع ذلك في جانب المرأة، لأنه منها يقينًا، وإن نفي ذلك يؤدي إلى القدح في أنساب الناس وإلى اختباط كبير، وما قلناه إن شاء الله تعالى هو التحقيق علمًا وذوقًا وكشفًا.

نعم، إن قيل شأن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظيم، وجاهه جسيم، وقدره لا يقدر، فنرجوا أن لا يهدر في العقبى، أما الآن فلابد من الإهدار المردع والانزجار، كما هو حكم ظاهر الشرع فليس

إرشاد ابن عسكر وشرح القرطبية والوغليسية والغافقية، وله ثلاثة شروح على "الحكم العطائية"، و"قواعد الطريقة في الجمع بين الشريعة والحقيقة"، توفي سنة ٨٩٩ هـ.

ببعيد، وكم أطلق لكثير من الأولياء في كثير من الأشياء مما الإجماع على منعه شرعًا.

وتقدَّم في السؤال الذي قبل هذا في الكلام على شأن المحبوب، ما فيه إن شاء اللَّه تعالى كثير من مفاتيح الغيوب، التي يخصها اللَّه بأرباب القلوب.

ومن هنا يلوح لك بعض أحكام والديْهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا وَعَلَيْهِ، فلو سلّم تحتيم الكفر لشأن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكبر من أن ينسب لهما ما لا يخطر بفكر، وإن قيل معه لا غفر ولا ستر بالاتفاق.

قُلْنَا: كم اتفاقات وإجماعات خرقها اللَّه تعالى وأهدرها لآحاد السادات، فكيف بسيد السادات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع إِنَّا نجزم إن شاء اللَّه بأنهما في أعالي الدرجات.

ونرى أن البحث عن هذا من أقبح القباحات، وما لجأ بعض الأخيار إلى البحث فيه إلا لاضطرار، كيف وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند سماعه ذكر بعض أمواته بسوء: «لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبَبِ الْأَمْوَاتِ»[٧٠]. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ

(٧٠) رواه ابن سعد في "الطبقات الكبرى"، وابن عساكر في "تاريخه"، وذُكِر في "ذخائر العقبى".

اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾[٧١] الآية. وقال: «مَنْ آذى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»[٧٢].

فايقظ أيها العالم الظالم، واحذر من إيذاء السيد العالِم، كي لا تهوي في هوة المظالم، فتصبح وتمسي بين خاسر ونادم، والعجب ممن لم يتأدب مع سيد العجم والعرب، وانظر إلى أدب الإمام أبي حنيفة[٧٣] رضي الله عنه وإضرابه لمَّا سئل عن التفاضل بين علقمة وغيره، فقال: "ما نحن بأهل أن نذكرهم، فضلاً من أن نفاضل بينهم"[٧٤] أو كما قال.

وإن قيل: هذا الإمام بفِيهِ تكلّم فيما نحن فيه.

قُلْنا: لم يثبت بعض الإعلام عنه هذه الأعلام، ولئن ثبت فلِاضطرار قرَّ كما مرَّ، مع أنه لم يثبت عنه نفي الإحياء. والحاصل أن هذا تطويل، ليس تحته طائل بل التطويل عين التقصير، فتجنَّب يا بصير.

---

(٧١) سورة الأحزاب الآية ٥٧.

(٧٢) رواه البخاري في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، والحكيم، والطبراني في "المعجم الأوسط"، والبيهقي في "الزهد"، وابن عساكر في "تاريخه"، وأبو نعيم في "الحلية"،

(٧٣) هو الإمام الأعظم فقيه الملة، صاحب المذهب الحنفي، أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي الكوفي، قيل: إنه من أبناء فارس، ولد سنة ٨٠ هـ بالكوفة، ورأى سيدنا أنس بن مالك بها، ذهب والده ثابت لسيدنا علي ودعى له ولذريته بالبركة. له أربعة آلاف شيخ من التابعين، أوّل من دوّن علم الفقه، وتوفي سنة ١٥٠هـ عن سبعين سنة.

(٧٤) ذكره ابن رجب الحنبلي في "فضل علم السلف على علم الخلف".

[السؤال الرابع والعشرون]

ومن شَكْل هذه الأسئلة: ما سألني عنه المحب في اللَّه الأمجد الرئيس عمرو بن محمد خوج المدني كان اللَّه له، وهو سؤال شريف وبحث منيف واستفهام لطيف، قَلَّ من يأتي بمثله، وليس لأهل المظاهر قدرة على حقيقة جواب شكله، ولا يُجيب عنه إلا من طرح رأسه مكان رجله، ورقى سامي مراقي فضله.

وهو هذا: ما معنى ما ورد في الحديث القدسي: «وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَاءٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»(٧٥)، إذا كان الذاكر في حضرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه الكرام رضي اللَّه عنهم، أو كان الذاكر هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، وهل ملأ خير من هذا الملأ؟.

فَقُلْتُ: يمكن على قول أهل الظاهر أن يجاب بأن الخيرية باعتبار الحيثية لا باعتبار الأفضلية الأكملية، كما يقال الحلَّاق أو الحجَّام أو نحوهما خير ممن لا يحسن ذلك وأفضل.

وأما على قول أهل الباطن فيُجاب بأن ذلك باعتبار الحضرات، وهي من ابتداء خلق الكائنات إلى الأبد، فحضرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ابتداء شروق الذات، ليس كحضرته بعد شروق كواكب

---

(٧٥) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وعبد الرزاق في "مصنفه"، وابن ماجه في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والبزَّار في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "شعب الإيمان"، والديلمي في "الفردوس".

الصفات، وهكذا إلى الأبد في الترقي، فكل حضرة أرقى مما قبلها فأهلها خير منهم آنفًا، ففي كل نَفَس من الأنفاس يزدادون من خير سامي الاقتباس، ومن حلي حلل الإلباس وهكذا، وهذا من باب علم الحضرات المخصوص علمه بخواص أهل العنايات، وعلم الحضرات علم لا يُحصر، ولو مُليء منه كل دفتر، من الأزل إلى الأبد، ومنه يعلم كثرة العوالم وعدم انتهائها، التي أشار إلى بعضها عارف العوارف الشيخ العارف السيد أحمد الرفاعي قدّس سره بقوله: "لا يكُمل الرجل عندنا حتى يعرف ثمانين ألف أُمَّة، الدنيا والآخرة عالم واحد منها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾".

[السؤال الخامس والعشرون]

وسألني قائلاً: لا شك عند أهل الله في ارتباط الكون بعضه ببعضه، الظاهر بالباطن والخفي بالجلي والعلوي بالسفلي، والأكبر بالأصغر والسابق باللاحق والخلف بالسلف، والصلاح بالتلف، وكل شيء بشيء، طردًا أو عكسًا استمدادًا أو إمدادًا، وإذا كان كذلك فلابد للاحتياج لكل ما هنالك.

وقد احترتُ في أمرك، فأراك في أغلب الأحوال قاطع الارتباط، حتى تتصرف غالبًا كذلك، ولم تكن كغيرك لا يتصرف إلا برابطة كالمشائخ والأولياء والعلماء والأجداد، لكيما إذا تحرَّك تحركت السلسلة كلها، فيأمن الخطر لمعاضدة البشر، ولا يتصرف أحد بدون ذلك إلا وغالبًا يهوي في المهالك، مع إني أراك بخلاف ذلك، حتى لقد ينفذ تصرفك على أكابر الأولياء أحياءًا وأمواتًا، وهم لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون معك، وهذا من أعجب العجاب الذي لم يسبق لباب من الأبواب، إلا لسيد أولي الألباب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأعجب منه تغيُّرك وتكدُّرك إذا قيل لك: توسَّلْ بالوسائل كرجال الرحمة والفضائل، فما هذا الطور الذي خرقت به كل طور، وكم لك من أطوارٍ خَرقَتْ جميع الأطوار؟.

قُلْتُ: ما أكثر فضول هذا السائل، وما أعظم تحري هذا القائل، ولو في ذلك فضائل الفضائل.

فاعلم أيها المائل، إني عبدُ اللَّه وإن شاء اللَّه ابنُ رسول اللَّه، فاعتمادي على اللَّه، واستنادي إلى اللَّه، ووسيلتي رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو روحي وأنا روحه، وهو سري وأنا سره، فارتباطي به كاف عن الجميع، لأنه كل هذا الكون البديع، ومصدر مظاهر البديع الرفيع.

وإذا فهِمْتَ ذلك وكُنتَ عالِمًا لما هنالك، فما هذا السؤال الأكلّ، وهل ما يحل أو حلّ، إلا من هذا الأجلّ، ومن المخرج إلا هذا الأقلّ، كما شاهد هذا من غاب وطلّ، وهَلَّ ما يحل أو حلّ إلا من يتصرف بالحضرتين في الحضرتين على الحضرتين، يحتاج إلى القبلتين، أم لتوجُّه الوجهتين، ومولاه وجده في القبضتين، وعلى الخدمتين بكلا اليدين والرجلين، مع كونه صفر اليدين.

فهذا هو السبب في قطع النظر عن السبب، فيا للَّه العجب ما أعجب هذا العجب، فلهو السمي عن سر الفضة والذهب، ولا أظن أن كاتبًا لمثله كتب، وكم لنا من اللَّه وهب، من وراء أطوار العجم والعرب، فأشكر اللَّه أيها السائل، حيث منحك هذه المسائل.

[السؤال السادس والعشرون]

وسألني: ما هذه الشطحات والتبجُّحات، وهذه الظُّهُورات بالكرامات والتصرفات، التي لم يسبق آحادها لآحاد السادات إلا في النوادرات، وما وجهها الموجب لها مع نص العارفين على أنها مما لا يعول عليها؟.

فقلتُ: هي من حال اضطراري وشأن ضروري قهري، ووجهها أنها مِصْداق لظهور سر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ؛ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ» رواه أحمد والترمذي عن أنس، وأحمد عن عمار، وأبو يعلى عن علي، والطبراني عن ابن عمر وابن عمرو[٧٦]. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مُبارَكَةٌ لَا يدْرِي أَوَّلُها خَيْرٌ أَوْ آخِرُها»، رواه ابن عساكر عن عمر وابن عثمان مرسلاً.

ولابد من ظهور ما أخبر به سيد أولي الصدور، كما ظهر ما أخبرنا به من بعض أمارات الساعة كالشمس من مغربها، ومن ولادة الأمة ربتها، ومن إطالة الحفاة العراة في البنيان، غير أن ظهور هذه قطعي لكونها قطعية، وأما فيما نحن فيه فظهور بستور وجلاء ببطون، يُوقع في الحيرة ويُوهم كالطيرة، لأنه إذا رأى الإنسان هذه الخوارق في هذا الزمان، التي لم تصدر من أعيان أول ذلك الأوان، احتار ولا

---

(٧٦) كما رواه أبو دواد الطيالسي في "مسنده"، والبزَّار في "مسنده"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، وابن حبان في "صحيحه"، وأبو نعيم في "الحلية".

وقع على مختار، وذلك لأن الحديث كذلك مُصرح بالحيرة، فيما هنالك بخلاف ما ليس كذلك.

فإن قُلْتَ: في هذا تردد في تفضيل الصحابة على من بعدهم، وتوقف في ذلك وإمكان أفضلية غيرهم، وهذا غير معروف ولا مرضي.

قُلْتُ: قد ذكرتُ في كتابي [كنز الفوائد] شرح عقيدتي [بحر العقائد] بعد نقل حديث: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»[٧٧] بطرقٍ كلامًا.

وسأذكره لك وهو هذا قال في [المواهب]: وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل من من بعدها، وإلى هذا ذهب معظم العلماء، وأن من صحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورآه ولو مرة في عمره، أفضل من كل من يأتي بعده، وإن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، هذا مذهب الجمهور.

وذهب أبو عمر وابنُ عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي» ليس على عمومه، بدليل ما يجمع القرن بين الفاضل والمفضول، وقد جمع قرنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(٧٧) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، وأحمد في "مسنده"، والترمذي في "سننه"، والبزَّار في "مسنده"، والنسائي في "سننه"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير" و"الأوسط"، والحاكم في "المستدرك"، والبيهقي في "سننه"، والخطيب في "تاريخه".

جماعة من المنافقين المُظهرين للإيمان، وأهل الكبائر، والذين أقام عليهم وعلى بعضهم الحدود، وقد روى أبو أمامة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي مَرَّة، وَطُوبَى سَبْعَ مَرَّات لِمَنْ لَمْ يَرَانِي وَآمَنَ بِي»[٧٨].

وَفِي [مُسْنَدِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حُمَيْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ الْخَلْقِ أَفْضَلُ إِيمَانًا؟، قُلْنَا: الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: وَحُقَّ لَهُمْ بَلْ وَغَيْرُهُمْ، قُلْنَا: الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: وَحُقَّ لَهُمْ بَلْ وَغَيْرُهُمْ، ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، يُؤْمِنُونَ بِي وَلَا يَرَوْنِي، فَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا».

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ كَتَبَ إِلَى سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: «أَنَّ اكْتُبْ إِلَيَّ بِسِيرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِأَعْمَلَ بِهَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَالِمٌ: إِنْ عَمِلْتَ بِسِيرَةِ عُمَرَ فَأَنْتَ أَفْضَلُ مِنْ عُمَرَ، لِأَنَّ زَمَانَكَ لَيْسَ كَزَمَانِ عُمَرَ، وَلَا رِجَالَك، قَالَ: وَكَتَبَ إِلَى فُقَهَاءِ زَمَانِهِ، فَكُلُّهُمْ كَتَبَ إِلَيْهِ بِمِثْلِ قَوْلِ سَالِمٍ».

قال أبو عمر: فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل، إلا أهل بدر

---

(٧٨) رواه أبو داود الطيالسي في "مسنده"، وعبد بن حميد في "مسنده".

والحديبية، ومن تدبَّر هذا الباب بأن له الصواب، والله يوتي فضله من يشاء انتهى. وإسناد حديث أبي داود الطيالسي عن عمر ضعيف فلا يحتج به.

لكن روى أحمد والدارمي والطبراني عن أبي عبيدة: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا، أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟، قَالَ: قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي»(٧٩)، وإسناده حسن وصحَّحُه الحاكم. والحق ما عليه الجمهور: أن أفضلية الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدلائل على أفضلية الصحابة على غيرهم كثيرة متظاهرة لا نطيل ذكرها. انتهى كلام صاحب(٨٠) [المواهب].

أقولُ: ولو تنزل فخيرتهم من حيثيات أخر، وكذلك فضلهم بالثواب في بعض أمور كما ورد فضل الآحاد بالثواب على الأنبياء في بعض أشياء، كما يُعلم ذلك من له سعة الاطلاع على الحديث، وذلك لا يفيد إطلاق الأفضلية المقتضي لمُطلق الثواب والكلام فيه فتدَّبر. انتهى ما في [كنز الفوائد].

---

(٧٩) رواه أحمد في "مسنده"، والدارمي في "مسنده"، وأبو يعلى في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم في "المستدرك"، وأبو نعيم في "الحلية"، وابن عساكر في "تاريخه".

(٨٠) هو العلامة المحدث الفقيه المقرئ الواعظ: أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني الأصل، المصري القاهري الشافعي، ولد سنة ٨٥١هـ بمصر. من مصنفاته: "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري" و"المواهب اللدنية" وغيرها، توفي سنة ٩٢٣هـ.

وأقولُ: هنا لا شك أن الصاحب من يحادث ويخاطب ويناجي ويراحب، فهذا إذا ثبت فضله بالدليل القطعي فلا كلام وبالدليل الظني فيلحق به وبالتردد لا ندري، ونكِلُّ الأمر إلى الله تعالى. وإذا كان أعلم العباد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ؛ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ» فما بال من لم يرتفع عنه ساتره ولم ترده قط صوادره.

وأما ما اصطلح عليه من كون الصحبة بمجرد الرؤية لا القربة، فالقطع بالأفضلية ليس إلا بالأولية وهي من حيثية، فالأدب الأبر هو الوقوف عن الخطر، والرجوع الي قول سيد البشر: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ».

هذا ما أدينُ الله به بحسب النظر العلمي والذوق الفهمي، وأما من حيث الكشف فلا يُدرك ولا الواحد من ألف ألف، فالأمر خطير والشأن عسير، والدرك سقيم والأمر عظيم، وأمر الله العليم.

[السؤال السابع والعشرون]

وسألني قائلاً: تبيَّن ما قُرّر أن الشطح والتبجُّح فيهما أسرار وتفسُّح، وأنوار وتوضُّح، فما وجه القائل بعدم التعويل عليهما، مع ما فيهما من فضائلٍ؟.

فقلتُ: عدم التعويل نظرًا إلى الغالب الجزيل، وبالنظر إلى مجرد ذلك من غير اقتران بمقاصد هنالك، أما باقترانها فقد تدور عليها الأحكام الستة الشرعية كلها، فيكونان فرضًا إذا أدّيا لإقامة فرض كنصيحة وتحذير، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ»(٨١)، وواجبًا تحدث بالنعمة لأمر: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٨٢)، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»(٨٣)، «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»(٨٤) ونحوه، وسُنَّة للاقتداء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(٨١) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، وسعيد بن منصور في "سننه"، وابن سعد في "الطبقات الكبرى"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، والترمذي في "سننه"، وابن السني في "عمل اليوم والليلة"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "سننه"، والديلمي في "الفردوس".

(٨٢) سورة الضحى الآية ١١.

(٨٣) رواه أحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، وابن ماجه في "سننه"، وأبو داود في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والبزّار في "مسنده"، وأبو يعلى في "مسنده"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم في "المستدرك"، والبيهقي في "شعب الإيمان"، والخطيب في "تاريخه".

ومنه قول عليّ رضي اللَّه عنه: "أنا نُقطة باء بسم اللَّه الرحمن الرحيم، وأنا جنب اللَّه الذي فرطتم فيه، وأنا العرش وأنا الكرسي، وأنا السماوات والأرضون". وكان ذلك في خطبة خطبها، وقال أيضًا:

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند مشهود مقيم ... يشاهده وعندكم لساني

ومُستحبًا لحث غيره على الاقتداء به وللتنشيط، ولذا ورد في الحديث: «إِذَا مُدِحَ الْمُؤْمِنُ رَبَا الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ»(٨٥).

وإذا علِمتَ هذا عَرفتَ أن شطح كثير من العارفين وتبجُّحهم ومدحهم أنفسهم ودعواهم غير خارج عن هذه الأقسام، ونفي ثبوت ذلك عنهم غير صحيح، بل الثابت يجل عن الحصر ويعظم عن عد القطر، ومنه قولي من ذلك:

أنا هذا الأمير وذا الغني ... وعبد اللَّه اسمي المرغني
فدع قولي ودع فعلي وكن في ... حواشي زمرتي يا الأوذعي
أنا فرد الوجود وسر سري ... سرى في الكون شاهده الرعي
وجاهي واسع والحال مني ... عظيم لا يدانيه ولي

---

(٨٤) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه".

(٨٥) رواه الطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم في "المستدرك"، والديلمي في "الفردوس".

وخيلـي تسـبق السـباق طـرا ... ولـم يرددهـا إلا العلـي
وسـيفي صـارم مـن حـط فيـه ... وأنفاسـي لهـا قـوّى القـوي
أنـا مهمـا رضيـتُ رضـى إلهـي ... ومهمـا قـد غضـبتُ فـلا دعـي
أنـا للكـون جـوهره فريـد ... ونقطـة بائـه والطلسـمي
ومـا لـي والفخـار ولسـت إلا ... عُبيـد صـفواه الـولي
مريـدي لا تخـف فـالرب ربـي ... وشيخي المصطفى جدي النبي
ومهما قد بُليتَ بخطب كرب ... فقـم وأنـده وقـل يـا مرغنـي
تجـدني إن يشـاء ربـي مُـزيلاً ... خطوبًـا مـا لهـا إلا الغنـي
ولكـن يـا خطيبـي قِـفْ رُويـدًا ... وقدّم في النداء جدي الصفي
فـإني لسـت شـيئًا لا وبعضًـا ... ولكـن بـالنبي قـام الملـي
فيـا ربـي صـلاة منـك فيـه ... بتسـليم مـع الآل التقـي

ولي من هذا غير واحد بلسان الحضرة الإلهية والنبوية والأولياء عمومًا وخصوصًا، وأما بالقال والحال بين النساء والرجال فكثير وكبير، وكله غير خارج عن هذه الأقسام، بل الغالب يكون من أول الأحكام، لأنه للتعريف الملتزم للتحذير أو للتغيير المورث للتطهير، أو للجلب الموجب للحلب، أو لما هو آكد من ذلك، فتفطّن لما هنالك.

وبهذا تبيَّن حق حقيقه ما قال قطب العارفين الشيخ محمد شمس الدين الحنفي[٨٦] قدَّس سره ناظمًا:

قد قال من قبلنا إمام ... في الفضل حبر له اهتمام
ليس على عارف انتقاد ... ولا اعتراض ولا ملام
لكونه عارفًا بصيرًا ... فكل أفعاله تمام
من كان لله كيف يبقى ... للغير فيه به مرام
قد أخرق الحجب عنه لمَّا ... وافت به رسله الكرام
والناس دون الحجاب سكرى ... فهم قيام وهم نيام
هل يستوي ميت بحي ... أم يستوي النور والظلام
أم يستوي الظل مع حرور ... أم يستوي البرق والغمام
أمن تجرَّى على الخطايا ... كالصالح الناصح الهمام
أمن سرى للعلى بسر ... للسر في سره اكتتام
والحق يسري به إليه ... والعلم منه له إمام

(٨٦) هو أبو عبد الله شمس الدين، محمد بن حسن بن علي الحنفي البكري، كان من أجلاء مشائخ مصر وسادات العارفين، من ذرية سيدنا أبي بكر الصديق، رافقه ابن حجر في التدريس، ولد سنة ٧٦٧هـ، وتوفي سنة ٨٤٧هـ. كان فقيهًا كريمًا، من تصانيفه: "الروض النشيق في علم الطريق"، و"شرح المختار للموصلي"، وديوان شعر.

وإذا عَلِمْتَ هذا عرفت أن كل أحوال العارف مبنية على لب المعارف، ولذا قالوا: "لو نزل من سماء الحقيقة لسقط على أرض الشريعة والطريقة"، وأقل مراتبه الإباحة، إذا قصد به التعريف المحض أو الإخبار أو نحو ذلك من الأخبار، وأما من قصد الاختيال والكبرياء والاحتيال والعجب والاصطيال فحرام ذلك إن غلظ، ومكروه إن خفّ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٨٧)، وقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٨٨)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٨٩). «إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْعَبْدَ أَنْ يُرَى مُتَمَيِّزًا عَلَى أَصْحَابِهِ»(٩٠). وقد كره العلماء التميُّز بكلا الشهرتين، والله أعلم بكلا النيتين.

(٨٧) سورة لقمان الآية ١٨.

(٨٨) سورة آل عمران الآية ١٨٨.

(٨٩) سورة الصف الآيتين ٢ - ٣.

(٩٠) ذكره السخاوي في "المقاصد الحسنة".

[السؤال الثامن والعشرون]

وسألني قائلاً: علمتَ مما تقرَّر وتكرَّر وتحرَّر أنه لا اعتراض على الأعراض وأولى الارتماض، لأنهم على بصيرة في العلانية والسريرة، فما وجه ما يقع منهم من كثير الغيبة والذم؟، مع إجماع العلماء على التحريم، بل قيل أنها من الكبائر.

فقلتُ: إن كان لها وجه من الوجوه الستة الذي ذكرها العلماء فلا كلام، وهي ما نظمها الجوهري(٩١) فقال:

لِستٍّ غِيبَةً جَوِّزْ وَخُذْهَا   مُنَظَّمَةً كَأَمْثَالِ الْجَوَاهِرْ

تَظَلَّمْ وَاسْتَعِنْ وَاسْتَفْتِ حَذِّرْ   وَعَرِّفْ وَاذْكُرَنْ فِسْقَ المُجَاهِرْ

وقد ذكرتها على أحسن تفصيل، وأكمل بيان وتطويل، في كتابي [جواذب القلوب]، فإن لم يخرج لها وجه من الستة، فارجع إلى ما ذكره الحنفية شروحًا وفتاوى من قولهم: "رجلٌ ذكر مساوي أخيه على وجه الاهتمام لا بأس به، لأن هذا ليس بغيبة، إنما الغيبة أن يذكر ذلك مُريدًا به السب والبغض"(٩٢).

(٩١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، أبو نصر، لغويّ، من الأئمة، من أبناء الترك، أشهر كتبه "الصحاح"، له كتاب في العروض، والصحاح في اللغة، وشرح أدب الكاتب، ومقدمة في النحو، ، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور. توفي سنة ٣٩٣هـ.

(٩٢) ذُكِر في "المحيط البرهاني في الفقه النعماني".

وبيَّنتُ معنى قولهم: على وجه الاهتمام: أي على قصد الاهتمام بشأنه والشفقة عليه من الوقوع في حدود الله، وهذا شان المؤمن الكامل كما قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٩٣)، وهو حق وعليه بعض أولياء الله تعالى، فغالب ما يجري منهم في هذا الباب من هذا القبيل، وهو في حق من يعرفه منهم أفضل من طاعات غيره، بل من كثير من طاعاته، إذ قد روي في الكشف حديثًا: «لَتَرْكُ ذَرَّةٍ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ»(٩٤)، ولأن الله سبحانه يتوب على فاعله بسبب اهتمام الولي له، وهذا أبلغ من الدعاء لأن الهمة والاهتمام تأثيرهما من وراء طور عقول الأعلام، وعن هذا يكون ذمهم مدحًا وغيبتهم صلحًا، وتكسيرهم تجبيرًا وتعفينهم تعطيرًا، وعنه قلتُ ناظمًا:

في ذمنا إصلاح ذا المفسد ... فاخلع عذار العقل يا معتدي
وامعن لإكسير لنا قالب ... نحس الوطي بالفضة العسجد
أما ترى النجَّار في نجره ... يصلح المنجور لمقصد
فضع موازين علم الشرع في حقها ... واجنح لهذا الهدي يا مهتدي

---

(٩٣) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، والدارمي في "مسنده"، وابن ماجه في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الأوسط"، والبيهقي في "شعب الإيمان".

(٩٤) ذكره الطحاوي في "حاشيته على مراقي الفلاح"، وابن نجيم في "الأشباه والنظائر".

يعلم رب الورى ما قلتُ ذا كاذبًا وفضل مولاهم شاهدتُ كم مشهد

وقد يكون الاهتمام سببًا لإزالة ذلك الظلام، أو لرفع صاحبها الظلَّام، أو لأمور يعلمها العلَّام، وعلى هذا التحرير تدور الأحكام الستة على الغيبة وكثير، والأمور بمقاصدها، والشؤون بمشاهدها، والعليم يشاهدها.

وإن قُلتَ: هذا في أغلب الخلق ممكن، أما من يغتاب الخواص بل خواص الخواص بل أفراد أهل الاختصاص خصوصًا، قد يحط بعض من يعتقد فيه الولاية على أكابر العلماء والأولياء بل والصحابة والملائكة والأنبياء بما تصم عنه الآذان، ويخرس عند النطق به اللسان، ويذهل العقل والجنان، وهذا يحير فيه عقول أكابر أولي العرفان، فما هذا الحال الذي لم يسلم إلا لأولي الخبال، إذ هو أوهى من لطيف الخيال، وأعسر من قلع الجبال.

قلتُ: قد عُلِمتْ أن الأمور بمقاصدها، وقد اتفقوا على أنه لا مُشاححة في الاصطلاح، وإذا كان كذلك فكم من لفظ وفعل قبيح، فيه أعظم وأشرف معنى صحيح، فأما الألفاظ فلا يُنكِر ما تحتوي عليه من الأغراض إلا أولي الأغلاط، وهي أظهر من الشمس، وأما الأفعال فكذلك، ويكفي قصة الخضر لذلك.

وإن لم تقنع بهذا فقل ذلك من حال، إذا الحال يبطل الأبطال، وإن لم ترض فقل لسان حال الحضرة الإلهية نطق بلسان البضعة الإنسانية، إذ في الحديث القدسي الصحيح: «فَبِي يَنْطِقُ وَبِي يَسْمَعُ وَبِي يَبْصِرُ»[(٩٥)]، والحضرة تنطق بلا حصرة، وما بعد هذا اعتراض إلا لمن بقلوبهم الأمراض.

واحذر بعد هذا التوضيح أن تعرج إلى التكفير القبيح، أو يخطر لك ببال يا مليح، فتبؤ به وتؤول لحزبه، فالتكفير بغير قصده عسر بحده، وصعب لبعده، وهذا كله بقطع النظرعن مقام المحبوبية، أما صاحبها فيتصرّف في حق سيده، بل وفي نفسه بما شاكلها في الظاهر المُشاهد، سيما المحبوب الأكبر، فتبصّر هذا وتدبّر، وما فوقه أظهر.

---

(٩٥) رواه البخاري في "صحيحه"، والبزَّار في "مسنده"، وأبو يعلى في "مسنده"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الأوسط"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "سننه"، والخطيب في "تاريخه".

[السؤال التاسع والعشرون]

وسألني: ما وجه من يترك الجماعة والجمعة من القوم، ويتبع سبل الكسل والنوم، وهل يشدد النكير عليه، أو يترك وما لديه؟.

فقُلْتُ: أقدم لك قصة الإمام مالك[٩٦] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي الأصل في هذه المسالك. قال المناوي في ترجمته من [الكواكب الدرية]: ومكث خمسًا وعشرين سنة لا يخرج للجماعة، ويقول: "أخاف أرى منكرًا لا يمكنني تغييره"، وأقام سنين لا يخرج للجمعة، فسئل عنه، فقال: "للناس أعذار"، واحتمل الناس له ذلك، فكانوا أرغب ما كانوا فيه، وأشد تعظيمًا له.

وفي [الإحياء]: "أنه كان يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطي الإخوان حقوقهم، فترك واحدًا واحدًا ثم تركها كلها. وقال: لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له" انتهى.

وإذا وقع هذا من هذا الإمام، بين ظهراني أولئك الأعلام، الذين هم صناديد أسود الإسلام، مع عدم إنكارهم ذلك، فمن تكُ يا أيها العُصَيْفير، ومن هو أقصر من كل قصير، أهل أنت أعلم من أولئك الأعلام؟، أم أنت أعمل من أركان الإسلام؟، وهل عدم تشديدهم في

---

(٩٦) هو إمام الأئمة وإمام دار الهجرة، إمام المذهب المالكي، مالك بن أنس بن مالك، الأصبحي، ولد سنة ٩٣هـ بذي المروة بالقرب من المدينة، أخذ عن ثلثمائة تابعي، ألّف الموطأ في أربعين سنة، درّس وهو ابن سبعة عشر سنة، وامتحن في خلافة المنصور، توفي بالمدينة سنة ١٩٧هـ بالبقيع.

التنكير لأجل ما بهم من التقصير؟، أم من علمهم الكبير. علمًا بأن الجاهل الحقير، لا يترك ذلك إلا لعذر كبير، فضلاً عن العالم الخبير، واجتنابًا لسوء الظن، الذي هو من قبح الفطن، كيف وهو يقول: "للناس أعذار"، وهم العلماء علمهم كالبحر الزخّار، فاكتفوا بهذا المقدار.

وأما أنت أيها المُتعنّت والمُتفيّقه المُتصنّت، أما تعتذر بوجه من وجوه فقهك، أما تحمل ذلك على محملٍ حسنٍ بحسب علمك، أما اختلف الحنفية في جواز الجمعة؟، حتى اختلفوا في إعادتها حتى اضطربوا اضطرابًا كبيرًا، أما قال الشافعية: يجوز ترك الجمعة بترك سُنَّة سوية؟، فكيف بسُننٍ بل بما هو آكد، أما أسقطوا الجمعة بأعذار؟، من خوف حبسٍ أو جرأةٍ أو إقعادٍ أو عمى أو غيرها من أعذار جلية أو خفية، يتعذر أو يتعسر الحضور معها، وفروع أصول الفقه يتفرّع عليها آلاف مؤلفة ظاهرة وباطنة، ومنها لو علم أنه لو خرج ليمقت الله به من أقل أدبه معه باحتقاره، أو بخطور انتقاصه، أو يسلبه الإيمان، أو يخذل به من لم يره بعين الكمال، أو يخاف على نفسه أو دينه أو دنياه، بما يعارضه من حوادث وأمور يعرفها أرباب القلوب، ومن رفع عن قلوبهم ستور الغيوب.

مع أنه إذا كنتَ عالمًا بأن للأولياء التطوُّر، والظهور في التصوُّر، فعلى أي صورةٍ تنكر، وعلى أي حقيقةٍ تنذر، وعن أيها تنفي ولأيها تثبت.

وعن هذا لما أنكر بعض الفقهاء على قضيب البان(٩٧) تركه الصلاة في جماعة، صلى بحضرته ثمان ركعات في أربع صور، ثم قال له: "أي صورة لم تصل معكم؟"، فقبَّل يد الشيخ وتاب. وقد حكوا من هذا الباب العجب العجاب، وما أحسن قول إمام الكبار: "للناس أعذار".

[السؤال الثلاثون]

وسألني: أَهَلْ يخشى على من يُقيم الإنكار على أولياء اللَّه تعالى إذا أوفى بشروط الإنكار على وجه الاعتبار؟، بأن لا يرى نفسه ويقصد الشفقة، والتحذير عن حدود اللَّه تعالى إلى غير ذلك من الشروط على وجه الكمال، وقد صرَّحوا بأنه لا يخشى عليه لأنه قام بما عليه، وهم أولى من يتبع الصواب، وأحق من يقبل الحكمة وفصل الخطاب؟.

---

(٩٧) هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْن بْن أَبِي الْقَاسِمِ بْن الْحُسَيْن، لَا يعرّف إِلَّا بقضيب البان، من أَهْل الْمَوْصِل وقبره ظاهرها معروف يزوره النَّاس. كَانَ من المعمّرين، لَهُ كرامات مشهورة يتداولها النَّاس. أورد السيوطي قصته في "الحاوي".

فقلتُ: هو كذلك غالبًا، وقد يخشى عليه السلب والعطب، ولو على أعلى درجات الأدب، لأن المحب يغار للمحبوب، ويغتاظ على من سواه ولو على أكمل أسلوب، ولأن المحبوب يتحكّم بما يشاء، ولو أوقد النار في الحشاء، فالحكم على ما سواه لا يتطرق لحماه.

وقد وقع وشوهد عطب كثير، وكانوا على أدب كبير، حتى لقد سُلب بعض كبار الأولياء في مثل ذلك، فما بال غيرهم ممن لم يكمل له أدب سالك.

وفي قصة الولي الشهير والعارف الكبير الشيخ محمد بن هارون السنهوري(٩٨) مع صبي القريداتي(٩٩) ما يوضح ذلك، وإن لم تكن مما هنالك.

(٩٨) هو محمد بن هارون السنهوري، إمام صوفي جليل مغربي الأصل، عاش في القرن السابع الهجري، استوطن قرية سنهور المدينة شرق مدينة دسوق بمصر. قيل: أنه قد بشّر بمولد السيد إبراهيم الدسوقي.

(٩٩) قال المناوي في "طبقاته" في ترجمة محمد السنهوري: "ومع علو مقامه مرَّ على فقير رث، ومعه أصحابه، فسلّم عليه فلم يلق له بالاً، فأخذه منه في نفسه شيء، فتفرق بمجرد ذلك عنه أصحابه، فعلم أن ذلك الفقير سلبه، فرجع إليه فلم يجده، فما زال ينتقل من بلدة إلى أخرى، إلى أن وجده خادم قرّاد وهو في داخل حلقته بالرملية بمصر يفعل الأفاعيل المضحكة للناس، فلما أبصره قال: ابن هارون، ما على الفقراء من ابن هارون؟، ما على الفقراء من ابن هارون؟، فكشف رأسه، وأكبّ على قدميه وقال: أتوب ولا أعود لمثلها، فأخذ عمامته ووضعها على رأسه، وأمر بيده على صدره، وقال: أعطيناك ما كان معك وزيادة، ولولا فتوة الفقراء لجعلتك عبرة، فرجع فإذا هو كما كان وزيادة". اهـ.

[السؤال الحادي والثلاثون]

وسألني: ما وجه قول بعض العارفين: "إن من شأن القطب كثرة الجماع"؟.

فقُلْتُ: إنما كان القطب كثير الجماع لكونه دائم الجمعية، كامل المجامع الإلهية والإنسانية، وافر الشمائل الحسية والمعنوية، عدل الأحوال الدينية والطبيعية، إذ هو الوارث الحقيقي للحضرة المحمدية، فهو الخليفة في الشئون الذاتية والصفاتية، فتدبَّر في هذه القضية.

وأيضًا حِدَّة الذِّكْر والسُّكْر، وقوة الرجاء والشكر، وشدة المراقبة والمشاهدة، ودوام الشهود والمعاهدة، تحمي اللحم والعظم، وتغلي الجسم والدم، وتملأ العروق والبدن، في كل حينٍ ونَفَس، وتوهّج نارًا من ذلك القبس، فيحتاج إلى الاستفراغ اضطرارًا، ويفتقر إلى ذلك افتقارًا.

ولذا قال الأمجد الجُنيد بن محمد الإمام قدّس سره الأحمد: "إني لأحتاج إلى الجماع كما يحتاج أحدكم إلى الطعام والشراب". وكان الشيخ محمد الخلوتي يقصد في كل أسبوع مرتين. قُلتُ: ولو قيل في كل يوم مرتين، لما استغربته إلا أولو البين.

وأيضًا في النكاح من التصفية والإفراح، ما يوجب الطيران إلى الملاح، والشغف إلى معانقة الصباح، واللهف إلى رشف تلك الأقداح.

وعن هذا قال الشعراوي في [اليواقيت] عن ابن عربي في الكلام على القطب: "يعلم من تحلّى النكاح ما يحرضه على طلبه والتعشُّق به، لا يتحقق قط في العبودية في شيء أكثر ما يتحقق به في النكاح، لا يرغب في النكاح للغسل، وإنما يرغب فيه لمجرد اللذة كنكاح أهل الجنة، وقد غاب عن هذه الحقيقة أكثر العارفين، لما فيه من شهود الضعف وقهر اللذة المُغيبة له عن إحساسه، فهو قهر لذيذ، وذلك من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولعلو مراقي هذا المقام جهله أكثر الأولياء، وجعلوا النكاح شهوة حيوانية، ونزّهوا أنفسهم عن الإكثار منها". انتهى.

أقولُ: وفي الاستلذاذ بطيبات الأكل والشرب ونحوهما من هذا المعنى كثير، حتى في اللباس والاستئناس حتى بالناس. وعنه قال النقشبندية: "طريقنا الجمع في الملأ، والفرق في الخلاء". وفي قول الشيخ بدر الدين ابن الصاحب إشارة إلى هذه المطالب، عند كل عشاق طالب، وقوله هو:

أهوى الفواكه والرياض وزهرها ... ولطائف المأكول والمشروب
ما ذاك إلا أن كل لطيفة ... ألقى بها أثرًا من المحبوب

[السؤال الثاني والثلاثون]

وسألني: هل ينحصر مقام القطبية الغوثية في آل خير البرية، فلا يكون القطب الغوث للملوين إلا من أولاد أحد الحسنين أم لا؟.

فقلتُ: قد اختلف الأكابر أرباب الشئون والمحابر، في هذه المعابر، فأول اختلافهم في أول الأقطاب، فنقل الشيخ إبراهيم المواهبي(١٠٠) في [شرح مقدمة الوصول] عن شيخه العارف أبي المواهب التونسي(١٠١): "إن أول من تلقى القطبية من المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة الزهراء مُدّة حياتها، ثم انتقلت منها إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ".

وفي كلام العارف المرسي(١٠٢): "إن أول الأقطاب مُطلقًا الحسن بن علي رضي الله عنهما". والثاني في انحصار القطب الغوث في أولاد أحد الحسنين وعدمه. فنقل السيد السمهودي(١٠٣) في [جواهر

---

(١٠٠) هو إبراهيم بن محمود القاهري المواهبي الشافعي، جاور بمكة، من مصنفاته: شرح الحكم، توفي ٩٠٨هـ.

(١٠١) هو محمد أبو المواهب التونسي الوفائي الشاذلي المالكي، أبو عبد الله، الْمَعْرُوف بِابْن زغدان نزيل مصر كان له شعر في التصوف، وكان مقيمًا بالقرب من الجامع الأزهر، توفي سنة ٨٨١هـ. من تصانيفه "بلغَة السُّؤَال عَن مَرَاتِب اهل الْكَمَال".

(١٠٢) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري المرسي، من أئمة الصوفية، ولد في مرسية في الأندلس عام٦١٦ هـ، ومنها لُقّب بالمرسي، يتصل نسبه بالصحابي سعد بن عبادة، أخذ التصوف على يد أبي الحسن الشاذلي في تونس، توفي في الأسكندرية سنة ٦٨٦هـ.

(١٠٣) هو الشريف الإمام نور الدين أبو الحسن علي بن عبد الله الحسني السمهودي، ولد بسمهود بمصر سنة ٨٤٤هـ، أشهر من كتب عن المدينة المنورة "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى"، ارتحل للمدينة، ودرس بها

العقدين] الانحصار. ونقل عن ابن عطاء الله(١٠٤) عن شيخه المرسي عدمه.

أقولُ: وهو الأصوب بل الواقع والأقرب، وقد تقدّم تقطُّب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، وهو أعظم دليل، إذ هم ليسوا من أولاد السيد الجليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولو قيل: إن أول الأقطاب الحسن، نظرًا إلى كونه سيد أولي الحُسن، إذ ذاك والآخر من الأزمان لا يخلو عن قطبه، ومن أحق بها إلا أشراف أشراف حزبه.

نعم أقولُ: يمكن الجمع بأنه إذا كان من الغير فربما حصلت له الخلافة من السيد، أو بالتحقيق بالفناء في سيد، كالمُرسي عن الشاذلي، وأبي الغيث(١٠٥) عن أبي الأهدل(١٠٦)، وكأبي يزيد عن عليّ الرضا(١٠٧) وهكذا، لأن القطب لابد أن يكون جامعًا للمظاهر

وتعلم، له مصنفات كثيرة. توفي سنة ٩١١هـ.

(١٠٤) تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري الجذامي المالكي الشاذلي، ولد بالأسكندرية سنة ٦٥٨هـ، وتوفي سنة ٧٠٩هـ. من أشهر مصنفاته "الحكم العطائية"، و"التنوير في إسقاط التدبير" و"لطائف المنن" و"مفتاح الفلاح" و"تاج العروس" وغيرها.

(١٠٥) هو شيخ الشيوخ السيد الجليل العارف بالله أبو الغيث ابن جميل اليمني، ولد بأسلم، صحب ابن أفلح، توفي سنة ٦٥١هـ.

(١٠٦) هو الشيخ الكبير العارف بالله الخبير السيد المبجل، أبو الحسن علي الأهدل بن عمر الحسيني، قيل: صحب رجلاً سائحًا من أصحاب الجيلاني. جد السادة الأهادلة، هاجر مع ابن عمه أحمد المهاجر من العراق إلى اليمن، توفي سنة ٦٣٢هـ بالمراوعة.

(١٠٧) هو الإمام أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، الهاشمي، ولد بالمدينة المنورة

المحمدية، فما لم تكن فيه البضعة النبوية أو معنى منها فبعيد أن يكون قطبًا، بل محال عند منح لُبًّا، فتدبّر هذا، والله أعلم ماذا.

[السؤال الثالث والثلاثون]

وسألني: ما الحكمة في كون القبلة هي البقعة الشريفة التي هي قلب الأرض وسُرّتها؟، مع كونها أشبه بالصنم، وأمثل بالعَلم، وكون المؤمن أفضل عند الله منها كما ورد(١٠٨).

ولذا قال بعض العارفين رَضِيَ اللَّهُ عَنهْمُ أَجْمَعِينَ ما معناه: "لو كان الدين بالرأي لكان التوجه إلى القطب الغوث أولى، لأنه الكعبة الحقيقية ومحل نظر الله في هذا العالَم".

ولِمَ لَمْ يكن الاستقبال لسيد أولي الجلال، الجامع لشريف الخلال، الذي هو كعبة أهل الوصال، وقبلة أولي الاتصال، المُتحلي بنعتَيْ الجلال والجمال، والحاوي لكل كمال بكمال، مُحَمَّد الذات والخصال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في كل حين وحال؟.

ولِمَ كانت من هذا الهواء والتراب ولم تكن مما سواهما؟.

سنة ١٤٨هـ، استشهد بطوس سنة ٢٠٣هـ. بعثه المأمون إلى خراسان فبايع له بولاية العهد بعده.

(١٠٨) روى السمرقندي في "تنبيه الغافلين": عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ مُتَعَلِّقٍ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَهُوَ يَقُولُ: أَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَنْ تَغْفِرَ لِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، سَلْ بِحُرْمَتِكَ فَإِنَّ حُرْمَةَ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ».

ولِمَ نهى سبحانه عن عبادة الأصنام، وجعل شبهها قبلة للأنام؟.

وما السر الذي حازت به هذا الشرف، وسمت به على أعلى الغرف؟.

فقُلتُ: للَّه دَرُّك أيها السائل، فكم لك من فواضل وفضائل، فأعظم بك ومسائلك، وأكرم بأبحاثك وقلاقلك، فلقد رقيتَ مرقًى أسمى، وسموت سموًا أحمى، فلا زلت في حضرة الجناب الأحمى، ترعى في هاتيك الرحاب العُظمى.

فاعلم وفقَّك الله وزادك من مدده وهداه، وجعلك من أخص أصفياه، أن القبلة هي محل نظر الله من هذا العالَم، لأن كل محب نظره وتوجهه إلى ما يتوجّه ويتعلّق به محبوبه، ومتعلّق نظر الله هو سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه محبوب الله، فهو القبلة الحقيقية، والكعبة الشريفة الربانيَّة، وهي قلب الأرض وسُرّته، الذي هو عبارة عن البقعة المباركة.

فلذا كان التوجّه إليها، لما أنه سبحانه ناظر إليها، إذ السر في السُّكان لا في المنزل، ولما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها وقطعة منها قبل الظهور، كان إليه التوجّه المشكور، فلما أخذت منها بضعته، وأفرزت طينته، بقي التوجه على حاله إليها، وذلك لما خلع عليها بسبب المجاورة، فالجار أحق بالدار، فدار عليه المدرار، ودرَّ

ذلك المدرار، فدامت قابلة للقبل ومستقبلة لمن أجل بسكانها تغلو الديار وتنخفض، وتدوم بعدهم بعز ما خفض، وإن لم يكتسب المجاور فما منّ ذي المجاورة. هذه واللّٰه السعادة التي ما فوقها زيادة، كن مع اللّٰه يكن معك، وانخفض له ليرفعك، فافهم الإشارة، فالبغية في المغارة، فهذه الحكمة في كون البقعة قبلة الأمة.

وأما عند لب خُلاصة أهل اللّٰه، فالقبلة هي سيدنا رسول اللّٰه عليه صلاة اللّٰه، الذي هو سرها الحال بها، وهذا التوجه الأول المنتج للتوجه الثاني وهو مراقبة اللّٰه.

وإن قيلَ: إذا كان ذلك فلِمَ أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتولي شطر المسجد الحرام، الذي هو بيت الملك العلّام، ولم يؤمر بالتوجه إليه لكونه المقصود؟.

قُلْنَا: لقد ربط الحكيم الأمور بأسبابها كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[١٠٩]، ومن عادة الحكيم الكريم إذا وهب لا يرجع، وإذا أعطى لا يمنع، ألا ترى السلطان إذا خلع على أحد شيئًا لا يرجع فيه، ولا يجري ذلك على فيه، مع أن المخلوع عليه لا يشهده إلا به كل من لديه؛ حتى لو ذهل عن ذلك السر، لما سوى قلامة ظفر، مع كون السلطان بنفسه يتوجّه لمن أخلع عليه القفطان،

---

(١٠٩) سورة البقرة الآية ١٨٩.

فيما يتعلق به من مصالحه ومآرب الإخوان، فتفهّم فأنت الولي المغلثم، والعليم المطلسم، فافهم وإلا فتفهّم.

وأما عدم جعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلة، فلأنه لو جُعل قبلة لدخل واجب حقه في واجب حق اللَّه تعالى وأُدّي ضمنًا، وذلك تساهل بشأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كونه بالمحل الأعلى والمكان الأرفع، فلابد من اختصاصه وتمييز واجبه كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(١١٠)، وفي الخبر: "فَلَا أُذْكَرُ إِلَّا وَتُذْكَرُ مَعِي"(١١١)، ولذا أمرنا بالشهادتين مع كون أحدهما مُتضمنًا للمعنيين، إذ من معنى لا إله إلا اللَّه لا كمال إلا للَّه، ومن الكمال إرسال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن لمّا كان محبوب اللَّه، ومن عادة المحب أن يحب للمحبوب مثل ما يحب لنفسه بل أزيد، ميّزه بتلك التمييزات، وخصّه بتلك الاختصاصات، حتى لقد أدرج حقه في حقه في بعض الأمور، كما جعل مبايعته مبايعة اللَّه، وطاعته طاعة اللَّه، وأذاه أذى اللَّه وهكذا، فهذا هو الوجه.

---

(١١٠) سورة الشرح الآية ٤.

(١١١) قال مُجاهد: "لا أذكر إلا وتذكر معي"، تفسيرًا للآية: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}. ذكره البغوي في "شرح السنة".

وإن قُلْتَ: أنت جعلته القبلة ابتداءً، وأن البيت اكتسب ذلك منه، وأنه عند لب أهل اللَّه هو القبلة، وهذا يُنافي ما ذكرته هنا.

قُلْتُ: لا منافاة لأن ذلك قبل الظهور، والعادة جارية بذلك، وأما بعد الظهور فلابد من تمييز مقامه، وأما على مذهب أهل اللَّه فهو أيضًا من البطون فلابد من الاندراج البتة.

وأما كونها من الهواء والتراب، فلأن الهواء محرك والتراب مسكن، فالهواء يحرّك إليها والتراب يسكن لها، فأحدهما جاذب، والآخر له طالب، وأيضًا الجنسية علة للضم، مع كونها أصلاً لكل إنسان تكرم، ولم تخلع هذه الخلعة لغيرها لعدم المجاورة إذ ذاك، ولتحملها ما لم يتحمله غيرها من الجمادات، فضلاً عن النبات والحيوانات، فتجلي العظيم لا يتحمله إلا الجسيم، وتحملها فرع تحمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾[١١٢] أي الكامل وهو مُحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه لما به من ضعفه، ﴿جَهُولًا﴾ بمعرفة قدره وبقدر أمانة ربه، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

---

(١١٢) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

وأما وجه جعل القبلة من شبه الصنم، هو أن العادة أن الحكيم لا يرسل إلى قوم إلا من جنسهم، ولا يأمرهم إلا بما يلائم ميل نفوسهم، تأليفًا لهم وملاطفة بهم، ولما كانت الأصنام مألوفهم وعلى طبق مرادهم وعبدوها ليتقربوا بها إليه، كما قال سبحانه حاكيًا عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(١١٣)، وهي دعوى منهم وإلا فلو صدقوا بالله لحقوا.

فلذا سُبحانه شرَع لهم التوجُّه للقبلة الشبيهة لذلك كيما باتباع الأمر تصدق الدعوى، وتحقق الرجوى، لصدق رغبتهم في حبها، وميل طبعهم إليها، وهكذا العادة في كل شيء لابد من الواسطة الرابطة وشرطها الجنسية، لأنها علة الضمية، وعن هذا قال بعض العارفين: "البيت حجرة والعبد مدرة فربط الحجرة بالمدرة"(١١٤)، لكن هذا شأن أولي القصور، والمدفون بهاتيك القبور، أما من رمى ببصره إلى فوق، وكان من أهل النظر والذوق، فمطمح بصره الساكن بقصره، كما قال مجنون ليلى(١١٥):

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذَا الْجِدَارَ وَذَا الْجِدَارَا
وَمَا حُبّ الدِّيَارُ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

---

(١١٣) سورة الزمر الآية ٣.

(١١٤) ذكره القشيري في تفسيره "لطائف الإشارات".

(١١٥) هو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري، مجنون ليلى، شاعر غزل، من المُتيمين، من أهل نجد، لم يكن مجنونًا، وإنما لقب بذلك لهيامه بحب ليلى بنت مهدي بن سعد، توفي سنة ٦٨هـ.

وعن هذا ردعت بعض الصادقات الجُنيد قدّس سرهما لما رأته طائفًا بالبيت: "أتطوف بالبيت أم برب البيت؟، فقال: بالبيت. فولَّت، ولسهام زجرها تولَّت، وقالت رافعة رأسها إلى السماء: "سبحانك ما أعظم مشيئتك في خلقك، خلْقٌ كالأحجار يطوفون بالأحجار"[١١٦].

وقال بعضهم لبعض في مثل ذلك هذا البيت:

يطوفون بالبيت قوم لو بجارحة ... بالله طافوا لأغناهم عن الحجر

وأما السر الذي حازت به هذا الشرف، فهو مجاورتها للطينة المحمديَّة، وخلعها عليها تلك الأنوار والأسرار المصطفويَّة، ولأنها أول متحرك وساكن، من هاتيك المساكن، ولأنها كالقلب الذي هو سلطان الجسم، ولأنها أول مجيبة لنداء الحق لما قال للسماوات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١١٧].

والحق في هذا ونحوه اصطفاء الله سبحانه واجتباؤه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ يجتبي، فالحق في الدليل أن أفعال الجليل لا تُعلّل بالتعليل، كاختياره للسيد النبيل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن قد تظهر بعض الحكم المناسبة، فتقول المشارقة هي من المغاربة، وجلَّ من لا يسأل عما يفعل، وتعالى من لا يسهى عن شيء ولا يغفل،

---

(١١٦) ذكره ابن الجوزي في "مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن".

(١١٧) سورة فصلت الآية ١١.

وهو الذي أحاط بكل شيء علمًا، وما ودع لغيره إلا رسمًا، بل لا شيئًا ولا اسمًا، كما قال : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[118]، فيحيطون شيئًا ما علمًا لا جزمًا، ودركًا لا عزمًا.

تنبيه: لعلك تقولُ: هذا في الكعبة ظاهر، فكيف في بيت المقدس؟.

فأقولُ: لا شك أنها أصله، وهو من أشرف أجزائها المجاورة للطينة المحمدية، فاكتسب ذلك كما اكتسب كثيرًا من الفضائل، كالتضعيف وغيره، ولذا لما تشظّى طوره عند تجلي اللّٰه له، عادت شظاياه إلى أصلها، وأنضمت إلى جنسها، فوقعت ثلاثة منها بمكة، وثلاثة بطيبة وهي حراء وثيبر وثور وأُحُد ووَرِقان ورضوى.

---

(١١٨) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

[السؤال الرابع والثلاثون]

وسألني: ما هذا القول من صاحب الرشحات ومعرّبها من غير ردٍّ أو توجيهٍ أو صدٍّ؟، والقول هو قوله: "رشحةٌ في بيان أنه ليس لأهل الظاهر خبر عن حقيقة العشق"، قال بيتين:

عجبتُ لأمر العشق إذ فرداوه   تزيد على الكتب الذي هي منزلة
وليس لنعمان به وابن حنبل   ولا الشافعي أو مالك درك مسألة

فقُلْتُ: قد ردّدته حين وقفتُ عليه من سنين، بقولي:

اعلم يا أخي أن الأربعة الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين من أكابر العاشقين، وأفاضل المحبين والعارفين، ولولا ذلك ما صاروا أئمة الدنيا والدين.

وأيّ عاشق أجلّ ممن رأى ربه مائة مرة في المنام، وما ذاك إلا بتمام الغرام، وكمال الهيام، مع ما جاء عن الإمام، من تمام العبادة والزهادة والصيام والقيام. وأيّ عشق أفضل ممن كان يرى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ليلة في المنام، مع ما رُوي في شأنه من الأدب التام. وأيّ شخص لا يكون عاشقًا وهو يقول: "لو يعلم محمد بن إدريس أنه ما يرى الله في الآخرة ما عبده في الدنيا طرف عين". وكيف لا يكون ابن حنبل عارفًا بالعشق، وقد رأى مرارًا منامًا مولاه، وصبر على ما صبر في أعاظم بلواه.

فليس هذا وأمثاله وأضعاف ذلك منهم، إلا لكمال عشقهم ومحبتهم وصدقهم، لكن إنما لم يظهر ذلك منهم كغيرهم، لأن الله اختارهم لإظهار الدين، وبيان أحكام الإسلام للمسلمين، مع كونهم باطنهم مشغولاً بذلك، ومُستهامًا بما هنالك، وهذا من تمام الكمال، والحمد لله على كل حال.

وأقولُ: هنا وجه هذا الرد ظاهر، سيما على نهج أهل الظاهر، وأما على ما ذهب إليه القائل ذلك من أهل الباطن، فقد لا يسلم من كل وجه، وإنما يرتضي من وجه دون وجه. إذ قد نقل العارف الشعراوي في [المنن] عن ابن عربي وغيره: "أن المريد الصادق في أول قدم يُعطى مقام الاجتهاد، حتى يفرغ الأحكام ويخرج الوقائع، وينال مقام المجتهدين". فإذا كان نهايتهم بداية المريد فكيف بنهايتهم، بل كيف المزيد، بل كيف ازدياد المزيد.

وعن هذا ترى لكلامهم وحكمهم ومعارفهم من الأسرار والأنوار والأحكام والإتقان والإيضاح والتبيان، حتى في تشبيه الغيب بالشهادة، وغير المحسوس بالمحسوس، ما يجلّ عن درك أشراف النفوس.

والحق في هذا أن أهل الظاهر مظهر له، كما أن أولي الباطن مظهره، وأن آل الظاهر مقامهم ظاهر الشيء، وآل الباطن باطنه،

فالخارج لا يدري ما الداخل بخلافه، فإنه ما دخل إلا ومرّ على الخارج، ولا شك أن الحارس للباب الخارج ليس كالحارس لما بعده، والذي بعده ليس كمن بعده وهلم جرا، فخادن مجلس العروس ليس كخادن باب المدوس.

لكن لا نقول أن الأئمة رضي الله عنهم من الخارج البحت، ولا الداخل الصرف، إنما خرجوا ولا دخلوا ودخلوا ولا خرجوا، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾(١١٩). وبالنسبة إلى من خرج عنهم هو كذلك، فالأفضليات بالحيثيات، والحيثيات لا تقتضي كمال الأفضليات، فكم جاهل حقير فقير خير عند الله من كثير من عالم عارف كبير غني، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»(١٢٠).

وعن هذا قال العلّامة العارف ابن دقيق العيد(١٢١): "فقيرٌ واحد صادق عندي خير من ألف فقيه". وقال قضيب البان في قصة له: "فلان ولو بلغ صيته الآفاق لا يسوى عند الله جناح بعوضة".

---

(١١٩) رواه مسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وابن ماجه في "سننه"، وابن حبان في "صحيحه"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "شعب الإيمان".

(١٢٠) رواه مسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "شعب الإيمان"، والديلمي في "الفردوس".

(١٢١) هو الشيخ الحافظ الفقيه المحدث البارع محمد بن علي القشيري القوصي، أبو الفتح تقي الدين، المعروف بابن دقيق العيد، ولد سنة ٦٢٥هـ في البحر الأحمر، له "الإلمام الجامع لأحاديث الأحكام"، توفي

وَفِي [الصَّحِيحَيْنِ]: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِرَجُلٍ جَالِسٍ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ: هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا».

وهذا من بعض أسرار الخبر: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ»، وَ«كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ»(١٢٢). وكم في الزوايا من خبايا، وكم من أعظم سر فيمن لا يسوى قلامة ظفر، وكم لله من مزايا، وكم من خزائنه من عطايا، وكم ترك الأول للآخر، وكم من صغير حقير أتى بما لم يأت به أكابر الأكابر، من أولي الشئون والمحابر.

بالقاهرة سنة ٧٠٢هـ.

(١٢٢) رواه مسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وابن سعد في "الطبقات الكبرى"، والترمذي في "سننه"، والبزّار في "مسنده"، وأبو يعلى في "مسنده"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "المعجم الأوسط"، والحاكم في "المستدرك"، وأبو نعيم في "الحلية".

ومن هنا يفهم أسرار كبيرة، ويدرك أنوار كثيرة، ويخرج من عقال عقول أهل الورق، وينال الصادق مما ناله أولو الحرق، كما قال أبو يزيد قدّس سره المجيد: "أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت".

وقال مالك رضي الله عنه: "ليس العلم بكثرة الرواية، بل نور يضعه الله في القلب، يفرّق به بين الحق والباطل". وقال الجنيد قدس سره: "إذا صدق المريد أغناه الله عن حفظ النقول، بنور يجعله في قلبه، يفرّق به بين الحق والباطل".

وكل هذا فرع مما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[١٢٣]. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[١٢٤].

ومن هُنا أيضًا يتضح معنى البيتين المسؤول عنهما وشبههما، ومنه ما قال فيها رشحة. قال: قال السيد قاسم: كنتُ يومًا جالسًا في مجلس مولانا زين الدين أبي بكر التاياري، فجاء رجل صوفي عنده، فسأله مولانا: أنت تحب شيخك أكثر أو الإمام أبا حنيفة؟، فقال: شيخي، فغضب مولانا عليه غضبًا شديدًا، حتى قال له: يا كلب، وقام ودخل بيته، ثم خرج مولانا وقال لي: يا فلان تعال

---

(١٢٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(١٢٤) رواه أبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "دلائل النبوة".

نذهب عنده ونعتذر منه، فقمتُ مع مولانا فوجدناه في الطريق مُقبلاً، فقال: كنتُ قصدتُ أن أجيء عندكم وأقول حالي، فقال: يا مولانا كنتُ سنينًا في مذهب الإمام، وعملتُ بما قاله، فما زالت صفة من الصفات المذمومة عني، وجلستُ أيامًا معدودة عند هذا الرجل، فزال عني جميع الأوصاف المذمومة، فأي مانع من أن أحبه أكثر من الإمام، فلو يكون في الكتب أن هذا الحب لا يجوز أتركه وأتوب منه، فاعتذر منه مولانا عُذرًا كثيرًا واستحسنه.

[السؤال الخامس والثلاثون]

ومن نظيرها ما سألني الولد المُحب بغير مين، المُصغّر المُكبّر حسين بن علي عبد الشكور الطائفي العاكفي، أمن من المخاوف، وهو ما صورته:

ما الحكمة في كثرة مظاهر الجلال على مظاهر الجمال؟، حتى كان الإسلام كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، وحتى كثُر الملائكة على كرات أضعاف المخلوقات وعظم خلقهم، حتى أن بعضهم ليزيد على ملء السماوات والأرض، وحتى كان ضرس الكافر كأُحُد في النار، حتى عظم حيَّاتها وعقاربها وغير ذلك، وهلا استوى الجلال والجمال؟، لأنهما نعتان للفرد القديم، فكيف يتفاوتان مع

اتحادهما؟، حتى في المبنى، ومع اتساع دوائر الجمال كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١٢٥]، و«رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[١٢٦]، إن اللّٰه واسع حكيم وغير ذلك.

فَقُلْتُ: أيها السائل مهلاً، فليس الأمر سهلًا، وما أنا له أهلاً، وإنما أذكر لك من بعض خُرافاتي، في الماضي والآتي، فأقولُ: بحسب عقلي المعقول، لا من منقول ولا معقول، ولكن استمدُّ من حضرة الرسول صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لا شك أن الجلال من الجلالة وهي العظمة والكبرياء، والجمال من الجمالة وهي اللطافة والحسن، فمظهر كل من النعتين بحسب ما احتوياه من المعنيين، وإن اتحد عدد حروف المبنيين، لأن الكبرياء والعظمة يقتضيان كبر دائرتهما وعظمهما اللازمان للكثرة، واللطافة والحسن يقتضيان صغر دائرتهما ووسعهما لكونهما مطلوبة مرغوبًا فيها، فإن الطيب ولو قلَّ يجل نفعه على الخبيث، ولو جلَّ لميل الكل إلى ذلك الأجل.

---

(١٢٥) الأعراف الآية ١٥٦.

(١٢٦) رواه البخاري في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وعبد الرزاق في "مصنفه"، وابن ماجه في "سننه"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، والطبراني في "مسند الشاميين"، وأبو الشيخ في "العظمة"، وأبو نعيم في "الحلية"، والديلمي في "الفردوس"، وابن عساكر في "تاريخه".

فمن ههنا وسعت الرحمة كل شيء وسبقت على الغضب، لأن الكل لها في الطلب، وهذه الرحمة هي مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال سبحانه في أزله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١٢٧] أي في إيجادهم وإمدادهم، إذ هو أصل الكل، ومنه انشقت جميع العوالم كما صرَّح بذلك الحديث في خطاب الحضرة لآدم عليه السلام: «وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ وَلَا خَلَقْتُ سَمَاءً وَلَا أَرْضًا»[١٢٨] إلخ. فلولا الأصل لما وجد الفرع، ولا شك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجوهر الفرد البسيط، فانظر إلى هذا اللطيف الفرد كيف وسع جميع الكثائف، مع أنه فرد واحد، وهكذا فَقِسْ.

وحكمة كبر دائرة الجلال هي: أن اللام فيه أكبر من الميم في الجمال، وأسرار الإله في الأشياء بحسبها، فإن الحكيم لا يفعل شيئًا قلَّ أو جلَّ إلا لحكم تحيّر دونها العقول، ويقصر عن درك أدناها المنقول والمعقول، وعن هذا قالوا: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وهم وإن اقتصروا في ذلك على العدد، لأنهم ليسوا فيه من آل شريف المدد، فعند آله الزيادة بالعظم تدل على زيادة الإفادة كما هي في العدد، بل تكبر عنها في المدد، فإن مائة ألف ذرة لا تعظم بكثرة عددها على الجمل، فضلاً عن الجبل، ولو هو واحد فتدبَّر.

---

(١٢٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(١٢٨) رواه الطبراني في "المعجم الأوسط". وأبو نعيم، والبيهقي، وابن عساكر، والحاكم.

نعم، والميم وإن كانت لامًا إذا حلَّ ربطها لكن هي لطيفة، فتسري في دائرة الكثيفة، وهي ميم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي ميم الرحمة التي وسعت كل شيء، وتدبَّر في حكمة ربط رأسها وحلَّ ذيلها تجد للحكمة التي أشار إليها حديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً»(١٢٩) الحديث. وفي الآخر: «وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ لِلْآخِرَةِ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»(١٣٠).

فانظر كيف زمَّها أولاً إلا واحدة، وأطلق الكل آخرًا كالميم التي هي مبدأ اسم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي زمَّ أوله وفتح آخره، فزمَّ أوله في ابتداء إيجاده، فكان فردًا آلافًا من السنين، ثم فتح آخره من الدال، ففاض المدد بالإيجاد والإمداد لجميع العباد، ومع هذا فالزَّمُّ في زمٍّ إلى حين الشفاعة العظمى، فينفتح ولا ينضم، وتأخذ الدال دولتها، وتصول صولتها إلى غير النهاية، لأن المفتوح لا يُضمُّ، والمطلق لا يُزمُّ.

---

(١٢٩) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، والبيهقي في "الأربعين الصغرى".

(١٣٠) رواه مسلم في "صحيحه"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم في "المستدرك".

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقولُ: تحرّر من هذا المقرر وجه بيان حكمة الكبر والكثرة في الأثر، ووجه حكمة صغر اللطيف وقلته، ووجه التفاوت بين النعتين في القديم كالحادث، وليس التفاوت في الأثر إلا لتفاوت المؤثر، إذ الآلات الخارجة متفاوتة التأثير، كالفأس والقدوم والسيف والسهم، والأشياء القوية والضعيفة وهكذا، فتفاوت المظهر لتفاوت الظاهر فيه، وأيضًا النعوت والأسماء في الكثرة والعظمة، وأيضًا كل شريف لطيف، فهو عزيز عفيف، فالقلب سلطان الجسد، وهو أقل وأعز شيء في هاتيك البلد. هذا ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وكذلك ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١٣١)، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(١٣٢).

(١٣١) سورة إبراهيم الآية ٢٥.

(١٣٢) سورة العنكبوت الآية ٤٣.

[السؤال السادس والثلاثون]

وسألني: ما معنى البيت الأول من البيتين اللَّذين أنشدهما سيد الكونين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السيد الشريف الطباطبي(١٣٣) منامًا، حين تسلَّط عليه الأمير القرقماش الشعباني، وأخرجه من خلوته. وهما:

يا بني الزهراء والنور الذي   ظن موسى أنه نار قبس
لا أوالي الدهر من عاداكم   إنه آخر سطر في عبس

وما وجه نسبتهم إلى الزهراء؟، وإلى النور الذي هو عبارة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترك نسبتهم إلى أبيهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما هو قاعدة الشرع الأطهر، وما هذا النور الذي هو عين النار التي ظنَّها موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كذلك؟، فنودي منها: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾(١٣٤)، فبيِّنْ لي ذلك وأوضِحْ، وزِدْ في ذلك وأفصِحْ.

فقلتُ: ما قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو عين الشرع، إذ قد صرَّح العلماء بأن أولاد فاطمة وذريتهم يسمُّون أبناؤه وينسبون إليه نسبة

(١٣٣) مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد السَّيِّد الطباطبي الْمصْرِيّ. مِمَّن صَحبه الْمَنَاوِيّ وَغَيره وَكَانَ مسلكا جَلِيلًا مَاتَ.

(١٣٤) سورة طه الآية ١٢.

حقيقية نافعة في الدنيا والآخرة، وإن من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كل أولاد بني أب ينسبون إليه إلا أولاد عليّ.

وأثبت الحنفية الشرف لأولاد البنت، لكون أصله كان كذلك، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ فِي صُلْبِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِي صُلْبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»(١٣٥). وروي نحوه من طرق. وفي غيره: «لِكُلِّ بَنِي أَبٍ عَصَبَةٌ يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا، إِلَّا وَلَدَ فَاطِمَةَ فَأَنَا وَلِيُّهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ، فَهُمْ عِتْرَتِي، خُلِقُوا مِن طِينَتِي، وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ»(١٣٦) الحديث. وصحَّ عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ يَنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا خَلَا سَبَبِي وَنَسَبِي»(١٣٧). وفي رواية زيادة الصهر والحسب. «وَكُلُّ بَنِي أُنْثَى عَصَبَتَهُمْ لِأَبِيهِمْ، مَا عَدَا وَلَدَ فَاطِمَةَ؛ فَإِنِّي أَنَا أَبُوهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ»(١٣٨). إلى غير ذلك من الأحاديث.

فهذا وجه نسبتهم إليه وإلى الزهراء، وترك نسبتهم إلى عليّ صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، ولا شك في الشرع أن كل شيء يُنسب إل أصله الحقيقي، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشارع المُشرّع، وعنه كان كافة الناس لا ينسبونهم إلا إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١٣٥) رواه الطبراني في "المعجم الكبير"، والديلمي في "الفردوس"، والخطيب في "تاريخه".

(١٣٦) رواه أبو نعيم في "الحلية"، وابن عساكر في "تاريخه"، والرافعي.

(١٣٧) رواه عبد الرزاق في "مصنفه"، وأحمد في "فضائل الصحابة"، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"ن والطبراني في "المعجم الكبير"، وأبو نعيم في "الحلية".

(١٣٨) رواه الطبراني في "المعجم الكبير"، وأبو نعيم في "المعرفة".

وَسَلَّمَ لا إلى عليّ، فيقولون: أولاد الرسول، ولا يقولون: أولاد عليّ، إلا نادرًا، حتى كأنه لم يكن له سهم في أُبوتهم أصلاً.

وإن قُلْتَ: لا شك أن النسب بالجزئية الأبويَّة، فلماذا كانت هذه الخصوصية على خلاف الحكمة العقلية؟.

قُلْتُ: بل ذاك موافق إن شاء اللَّه تعالى، لأنه لا مانع في قدرة اللَّه أن يأخذ بعض جزئه النبوي بطريق النكاح المعنوي، فيضعه في عليّ، ويضعه عليّ في فاطمة، ويخلق منه ما أراد كرامة لسيد العباد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولقد وضع كثيرٌ من الأولياء أسرارًا في البعض، يحملها إلى غيره حيًّا وميتًا. وقد ورد أنه كان يمصها لسانه، وإذا ولدت مريم عليها السلام بلا أب أصلاً، فلإن تلد بالأب المعنوي بواسطة عليّ فاطمة رضي اللَّه عنهما أولى. وقد كان بعض المُحبين إذا قصد حبيبه خرج منه الدم، وكذا إذا أكل وشرب أو تخلى، وإذا كان بعض أفراد الأولياء يربي بالنظر، فالأجدر أن يولد سيد البشر، فشأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء أطوار الفطر، فتدَّبر وتفكَّر وتعطَّر، فلعلك تقطع بأنه غير مسطر.

وأما النور فهو النور الخاص، الذي هو أول بادٍ من تجلي شمس ذات الاختصاص، المُشار إليه بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾[١٣٩]، والمُصرح به حديث: «أَنَا مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ نُورِي».[١٤٠] وما في حديث جابر: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ قَبْلَ الأَشْيَاءِ نُورُ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ»[١٤١].

فهذا هو النور الذاتي ومنه النور الصفاتي، ولا شك أن النور أثر النار، فلما رؤي ظن أنها هي لأنها السبب الظاهر، فنودي من جانب السبب الحقيقي الباطن: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، فلا يقف بك عزمك عند ما يشهده حزمك، فيقعد بك جزمك.

وكذلك ناداه الحبيب الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريق الإشارة الفائق للعبارة: بأني ذلك النور يا موسى، لأنه مجلى ذات المتجلي، فكيف تجعلني نارًا، وهي مجلى صفة المتجلي، فكيف تقف مع الأسباب على ما ظهر من الأبواب، ولم تخرق الحجاب، حتى تشهد ما تحت النقاب، فما ثَمَّ إلا هو ثم عبده، بل هو حِبُّه ومُحبُّه، فأين النار من هذه الأنوار؟، وأين المزار من ذلك المزار؟، ومحط للأوزار، فشمِّر الإزار، كيما تفرّق النور من النار، وتميّز سر الأسرار، وتشهد المولى السَّتَّار، في جميع الأغيار وسائر الأطوار، فكن جامعًا في فرقك، وفارقًا في جمعك، ليكمُل جمعك في فرقك وجمعك.

---

(١٣٩) سورة النور الآية ٣٥.

(١٤٠) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، والمتقي الهندي في "كنز العمال"، وابن كثير في "تفسيره".

(١٤١) رواه عبد الرزاق في "مصنفه".

وما أحسن تصدير وتعجيز العارف المعرف الرائي، الشيخ أحمد بن ربيعة الحسائي، كان الله لهما في المرائي، حيث قال:

يـا بنـي الزهـراء والنـور الـذي هو نفس القدس في عين النفس
وتجلي الذات في المعنى الذي ظــن موســى أنــه نــار قــبس
لا أوالـي الـدهر مـن عــاداكم بل لـه في النار حال المنتكس
فـي لظـى أعضـائه قـد كـورت إنــه آخــر ســطر فــي عــبس

غيره:

يـا بنـي الزهـراء والنـور الـذي حــان قــدرًا لا يضــاهيه قــدس
كــان قبــل الكــون نــورًا فلــذا ظــن موســى أنــه نــار قــبس
لا أوالـي الـدهر مـن عــاداكم فهـو المطمـوس فـي كـل نفـس
ويلــه مــن عــاذل يــوم يــرى إنــه آخــر ســطر فــي عــبس

غيره:

يـا بنـي الزهـراء والنـور الـذي كل نجم في العلى منه اقتبس
نـوركم فـي الطـور لمـا أن يـرى ظــن موســى أنــه نــار قــبس
لا أوالـي الـدهر مـن عــاداكم أو عليــه الأمــر فــيكم التــبس
لســت أخشــى الله فيــه أن أقـل إنــه آخــر ســطر فــي عــبس

غيره:

يـا بنـي الزهـراء والنـور الـذي	ظهـر الحـق بـه فـي المقتـبس
وتجلـــى ســـاطعًا فـــي أُفقـــه	ظـن موســى أنــه نــار قــبس
لا أوالـي الـدهر مـن عـاداكم	بـل ردى فـي هـوى وقلـس
ولـذا مقـت وفيـه قـد أُتـي	إنـه آخـر سـطر فـي عـبس

تنبيه: اعلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو النور الذاتي فقط، لأن الذات فرد جامع فمظهرها لا يكون إلا فردًا جامعًا ليس له نظير، كما ليس لها نظير إذ لا يظهر في المرآة إلا وفق المرئي، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ»(١٤٢) أي هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرآة ربه التي ظهر فيها، وبه قطعنا بأنه من نور الذات، أي من تجليها فقط، وأن غيره من نور الصفات أي تجليها، وإن تجلي الذات الحقيقي مختص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس لغيره فيه مقدار خردلة.

وهذا مذهبي وإن صرَّح الأكابر في كتبهم بما لا يحصى بحصول تجلي الذات لغيره، فإنما هو تجلي مجازي صوري صفاتي حقيقة، إذ ليس في استعداد غيره أصلاً قدرة للتجلي الذاتي الحقيقي.

---

(١٤٢) رواه أبو داود في "سننه"، والبزَّار في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الأوسط"، والقضاعي في "مسنده"، والبيهقي "سننه"، والديلمي في "الفردوس".

وإذا علِمتَ هذا فاعلم أن ما كان بالذات فلا يكون إلا كاملاً البتة طاهرًا مطهرًا، لأن ما بالكامل كامل ضرورة وإن اعتراه طارٍ فلابد من التطهير أولاً فأولاً. وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١٤٣)، فالمبالغة في التطهير من القادر الكبير، لئلا يصطال سلطان الصفات بالتغيير، ويخرج عن دائرة ذات الكبير، وإذا ثبت كماله أبدًا فلا يعتريه الزوال ولا النقص بحال، بل ذلك النقص من التكميل، كما قالوا في معاصي العارف قد تكون زيادة في حسناته، وترقيًا في درجاته.

وعن هذا قال العارف بالله الشيخ أحمد زرُّوق، كان الله له في [نصيحته]: وقال بعض العلماء: "يُعتقد في أهل البيت أن الله تعالى متجاوز عن جميع سيئاتهم، لا بعملٍ عملوه ولا بصالحٍ قدَّموه، بل بسابق عنايةٍ من الله لهم، فلا يحل لمسلم أن ينتقص أعراض من شهد الله بتطهيره وذهاب الرجس عنه، وما نزل بناديهم من الظلم والجور نزل منزلة القضاء الوارد من الله تعالى كالغرق والحرق ونحو ذلك، إذ لهم من الحرمة ما لسيدهم الذي نسبوا إليه" انتهى.

ومما قررتُه سابقًا يقطع بأنه لا يقاس عليه غيره من الأنبياء ولا أولادهم على أولاده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ، لأن هذا أمر

(١٤٣) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

خصّه الله به وبذريته بسببه، فلا أحد يلحق به. وفي الحديث: «نَحْنُ أَهْلُ بَيتٍ لَا يُقَاسُ بِنَا أَحَدٌ»[(١٤٤)] أخرجه المُلا.

وإن قُلْتَ: قد وردت أحاديث مقتضية لوقوع نقص وكفر كحديث: « «إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِي، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا»[(١٤٥)].

وصحح الحاكم حديث: «وَعَدَنِي رَبِّي فِي أَهْلِ بَيْتِي مَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَلِي بِالْبَلَاغِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ» وإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغني عنهم من الله شيئًا ونحو ذلك.

قُلْتُ: وأيضًا وردت أكثر منها وأعظم في أضداد وأزيد من ذلك، وإنما ورد ذلك لأجل الإنذار والإرشاد وعدم الاغترار، كيف والقطع بالاتصال محال في الانفصال، ولنمسك العنان، لئلا يجري البنان، بكشف العيان، فيبوء بالخسران، من لم يكن من أولي الإيقان، ويختل عقل أولي الجنان بما لم يدخل تحت ميزان، وفيما ذكرناه كفاية، لسالكي سبل الهداية، ونهاية لعارفي نهج النهاية.

---

(١٤٤) رواه الديلمي في "الفردوس"، وابن عساكر في "تاريخه".

(١٤٥) رواه الطبراني في "المعجم الكبير".

[السؤال السابع والثلاثون]

وسألني قائلاً: ما وجه هذه الأقوال الشنيعة والألفاظ البشيعة المشاكلة لقباحات الشيعة؟، الصادرة منك ومن أمثالك من القوم، وأي فائدة في ذلك، مع إمكان ضدها هنالك؟.

فَقُلْتُ: كم تسألني أيها السائل من جنس هذه المسائل، وإلى متى هذا الفضول؟، فقال: كيف يفعل الحائر سيما إذا وقع على خابر ويكشف بالمحابر؟.

فَقُلْتُ: كل ذلك من باب التوريات والمجازات والكنايات، وفي الكتاب والسُّنة وكلام أهل السُّنة كثير، ولينظر إلى أبواب المزاح في ذلك ونحوها، وفائدة ذلك الجلب للصادق والامتحان للإيمان، والدفع لعُباد الشيطان، ولمن لا نصيب له إلا الخسران، ولأمور أُخر يعرفها أربابها، والأمور بمقاصدها والأعمال بالنيات، والحكيم يداوي الشيء بما يريده، والوالد يشتم ويضرب ويؤلم ويخرب، وكل ذلك لصلاح، وخصوصًا للعالم به، وأولي الكشف وحزبه. وانظر إلى أفعال الخضر عليه السلام، كيف آلت إلى النفع التام.

وأما تحمل المباني للمعاني، فذاك فوق اعتناء كل عاني، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾(١٤٦)، وعرف كل فريق مطلبهم، فإياك أن

(١٤٦) سورة البقرة الآية ٦٠.

تقربهم بعقل أو تحربهم، فلهم شيء كثير ظاهره خفي في غاية الإشكال، وباطنه جلي المجال لدى أهل الكمال.

ومن ذلك قولي داعيًا: رزقك الله الدنيا واشغلك عن الدين، وجعلك من المساكين، الذين هم أشبه بالفراعين. وبيانه رزقك الله المنزلة الدنيا في قربه من قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾(١٤٧) الآية، والدنيا بمعنى القريبة، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾(١٤٨)، واشغلك عن الدين بمشاهدة حب العارفين والفناء فيه، وهذا المقام يشغل الإنسان عن دينه ودنياه وأخراه، وهو أعلى ما تمناه، وجعلك من المساكين الذي قال فيهم سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»(١٤٩)، وسمتهم ما أوضحه الحديث القدسي بقوله سبحانه: «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي»(١٥٠)، الذين هم أشبه صورة لا معنى وظاهرًا لا باطنًا بالفراعين، لنطقهم في فنائهم بألفاظ لم ينطق بها غير الفراعنة، من قول بعضهم: أنا الله، وأنا الحق، وسبحاني ونحوه.

(١٤٧) سورة النجم الآية ٨.

(١٤٨) سورة الأنفال الآية ٤٢.

(١٤٩) رواه ابن ماجه في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والطبراني في "الدعاء"، والحاكم في "المستدرك"، والبيهقي في "سننه". والخطيب في "تاريخه"، وابن عساكر في "تاريخه".

(١٥٠) رواه أحمد في "الزهد"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "الزهد".

ومن المعلوم أن ذلك لسان حال الحقيقة الإلهية، كما صرّح بذلك شريف الأحاديث القدسية، بقوله سبحانه: «فَبِي يَنْطِقُ وَبِي يَسْمَعُ» إلخ الحديث، فافهم المعنى ودع المغنى، وتأدب مع أهل المبنى، وهكذا نزل ما تسمعه من كلامهم، فإن ذلك عين مرامهم.

ومنه قولي مرة داعيًا: اللَّهُمَّ اجعله عونًا على معاصيك، وعلى كل ما لا يرضيك. ورفع إيهام ذلك بقوله: كل ما يصدر عن العبد بالنسبة إلى جناب الرب معاصٍ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وهذا لا شك فيه إلا من لم يعرف الله ولم يعامله، وأما من عرفه وعامله فعنده ذلك أظهر من الشمس، سيما خواص الخواص، حتى أنهم ليعدون أجل طاعتهم معاصي بالنسبة لما ينبغي له تعالى، كما قال العارف ابن الفارض:

ولو خطرت لي في سواك إرادةٌ   على خاطري سهوًا قضيت بردتي

وكقول رابعة: "استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير".

وإذا ثبت ذلك علم كونه عونًا على ما لا يرضيه، إذ لا يرضيه سبحانه المعاصي، لأنها من الكفر، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[١٥١]، والآية عامة لا تخصيص لها بوجه، فكل واقع منهم فهو كفر وإن كان

(١٥١) سورة الزمر الآية ٧.

مختلفًا، إما كفران جحود أو كفران حدود. ومن هنا قال بعض العارفين:

ما وحّد الواحد من واحد　　إذ كل من وحّده جاحد

وقال الآخر:

ما أفرد الواحد ذو تفريد　　إلا وقد أشرك في التوحيد

فإذا لا يقع من العبد في الكون إلا ما لا يرضيه، فالكل في الكفر والإشراك، ولكن ما كل كفر كفر، ولا كل إشراك إشراك. وبيانه أن كل موحّد بتوحيده ينفي ما يتوهمه من الشريك فتوحيده شرك البتة.

واعلم أن هذا لا ينافي ما أجمع عليه العلماء بأن الطاعات مرضية لله تعالى والمعاصي غير مرضية، لأن ذلك بالنسبة إلى البدايات لا النهايات، ألا ترى أنهم أجمعوا على أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فكيف يكون المرضي من غير المرضية إلا بهذه الحيثية. فتدَّبر في هذا التحقيق، وتمعّن في هذا التدقيق، لتسلّم لأهل الطريق، وتلحق بالفريق، وهذا باب واسع جدًّا، بل عمله كبير لا يحاط به حدًّا، وأسرار علومه من وراء منطوقه ومفهومه، ومن رام رفع الستارة، شنّت عليه الغارة، ويكفي اللبيب فهم فرع من ذلك العجيب. ولا ينبغي لأحد من عام وخاص وأخص خاص أن يقتصر على ما له من الاقتناص، إذ ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، بل ﴿لَا

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾، فكيف يرجم بالغيب، كل من في علمه العيب، أفلا يؤمن بالغيب ليسلم من الريب، فابصر وتبصّر، وإلا فتهوّد وتنصّر، والله يهديك.

[السؤال الثامن والثلاثون]

وسألني: ما هذه الأمور المتضادة التي أراها منك وما سرها؟، فإني في حيرة عظيمة من ذلك، فأراك تلوم الخصوص والعموم في الإتيان إليك، وتتعب وتتكدر من عدمه، مع كونك تصرفهم بالقال والحال، ولا تريد إلا أفراد الرجال، وأراك تكسرهم من أجل الدنيا، وتطلب منهم أن يأتوك بكثير مع كونك لا تريد ذلك، بل لا قصد هنالك، بل تطرد من تظن أن يأتيك بها بالقال والحال، كما شاهد ذلك منك الكثير وما نحو ذلك.

فَقُلْتُ: يا أيها الحائر البصير، هذا نعت اللطيف الخبير، والواحد الكبير جلَّ شأنه، فإنه ما بعث أنبيائه بالشرائع إلا للإقبال عليه والقيام بخدمته، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١٥٢)، مع كونه تعالى صرف الأكثر عنه من الأزل، وجعل في قلوبهم الأمراض والعلل، وكل ذلك لا لعلة ولا من قلة، بل لما

(١٥٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.

اقتضاه الكمال، من نعتي الجلال والجمال، وإنما أمرهم بالخدمة بحسب الإمكان، ليدوم لهم مدد الإحسان، فطلبهم لهم ونفعهم خاص بهم، وهو غني عنهم.

وإذا كان هذا نعت الله فالأجدر به من بعده عباد الله، كما قال عليه صلاة الله: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»[١٥٣]، فاتضح بهذا سر وجه التضاد، وارتفع به الحيرة والعناد، ومن هنا يخرج ما لم يحصر مما ذكر، ومما لم يذكر، ولفضل الله أكبر.

وإن قُلْتَ: فعلى هذا فما يقع من العارف من لوم وعتاب وفرح وسخط وبسط وكدر، مما يجري بالقدر حتى على ما وقع ونفذ، فلا لوم عليه بوجه ولا بخس.

قُلْتُ: هو كذلك إذا الكمال إعطاء كل ذي حق حقه، فيعطي القدر حكمه من الرضا، ويعطي المقدور ما يستحقه من السخط، فلينتبه لهذا فإنه محل غلط ومزلة وسقط.

وأما طلب الدنيا منهم مع عدم قصدها، والميل إليها، وصرف من يأتي بها، فذلك لأمور من تليين القلوب ومواساة الغير وللزهد فيها وللسخاء والكرم، وليزرعوا ليحصدوا، فإن أهل الله أغنياء بالله، وهم أهل المدد، فما لم له يستعد، فكيف له يستمد، والأمور مرتبة على

(١٥٣) ذكره الغزالي في "إحياء علوم الدين"، والرازي في "تفسيره"، والقشيري في "رسالته".

الأسباب، ذلك تقدير الحكيم الوهاب، أهل هو مفتقر إلى زكاتهم أو صدقاتهم أو صيامهم أو صلاتهم، أم نفع ذلك لهم عاجلاً وآجلاً، وذلك لقيام نظام العالَم، أخذًا من الأغنياء وردًّا في الفقراء.

ومن هنا تفهم سر تغيظ الأولياء على من قطع عاداتهم أو قصر تبعًا لمولاهم، لما فيه من خرم النظام القائم بذلك، وقطع مصالح من قامت به وتبديل سنة اللَّه تعالى، وكل أمور الكون مرتبة عليه، إذ ليس ثَمَّ غيره غيبًا وشهادة.

وبهذا تبيَّن أن المدار على الدور، وأنه الركن الأعظم، وإن الكون مرتبط بعضه ببعض البتة، كدائرة البيكار لا تتم إلا باتصال كل جزء منها بالآخر، فكل ذرة من ذراته مُمدّ ومُستمدّ، ومُفتقّر ومُفتقّر إليه لا محالة، وما ثَمَّ سوى هذا، فما في الإمكان غير ما قد كان.

[السؤال التاسع والثلاثون]

وسألني: ما وجه كثير من المشكلات الصادرة من كثير من الأكابر من أقوال وأفعال وأحوال الموقعة في مهاوي الضلال؟. وما الحامل لهم عليها مع الاستغناء عنها بضدها، وإيضاحها لو أحتيج لذلك.

فَقُلْتُ: لا شك أن المظهر تبع للظاهر فيه، والمجلى لا يبدو فيه إلا ما يتجلى فيه، وقد أتى في كتابه بالمُتشابه وما في معناه وبقصة الخضر ونحوها، وإذا كان الظاهر ظهر بجميع هذه المظاهر فمظهره كذلك، ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء.

وإن قُلْتَ: ما صدر من الظاهر، ومن خلفائه الأكابر، فهو قليل بالنسبة إلى غيرهم، وأما هذا الزائد على الحد الخارج عن العد فما وجهه؟.

قُلْتُ: لا شك في أن القاصر لا كالوافر، والناقص لا كالكامل، والنقطة لا كالبحر، فكل بحسبه وعلى قدره ونسبه، فالنقطة من البحر تمدّ بحورًا من النقطة، والذرة من الجبل تمد جبالاً من الذرة، فتدَّبر وتبصّر والله أكبر. وعن هذا قال علي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: "الْعِلْمُ نُقْطَةٌ كَثَّرَهَا الْجَاهِلُونَ"(١٥٤).

(١٥٤) ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، والصنعاني في "سبل السلام".

وإذا لم يكن الأمر كذلك كيف يحتمل كل لفظ من ألفاظ الكتاب والسُّنَّة آلافًا من العلوم، التي يكل عن درك أدناها المنطوق والمفهوم.

[السؤال الأربعون]

وسألني: ما معنى العارف بالله تعالى الشيخ عبد الكريم الجيلي(١٥٥) قدّس الله سره الليلي، في هذا البيت، قال رحمه الله تعالى:

مَا أَفْرَدَ الْوَاحِدُ ذُو تَفْرِيدِ   إِلَّا وَقَدْ أَشْرَكَ فِي التَّوْحِيدِ

وقول العارف بالله الباري الشيخ أبي عبد الله الأنصاري(١٥٦) قدّس سره الباري في نظمه:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ   إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ

وهل هما على العموم المُطلق فيهما، أم يدخلهما الخصوص كما هو قاعدة ما من عام إلا وخُصَّ، حتى هي وكيف هذا الخصوص؟، ومن صاحبه إلا سيد الخصوص صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١٥٥) هو قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي القادري، ولد بجيلان العراق سنة ٧٦٧هـ. وهو سبط السيد الجيلاني من أولاد بناته. ومن أشهر تصانيفه الكثيرة: "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" ، توفي بزبيد باليمن سنة ٨٣٢ هـ.

(١٥٦) هو شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري الهروي، صوفي وفقيه حنبلي، شيخ خراسان، صاحب "سراج السائرين". ولد بمدينة هرات سنة ٣٩٦هـ، وتوفي سنة ٤٨١هـ.

فَقُلْتُ: أما معنى قول الجيلي: ما أفرد إلخ، فذلك أنه لا يتصورالتفريد إلا بوهم التنديد، وتخيل الشريك البعيد، وذلك شرك يا مجيد، فلزم الشرك البتة، ولولا التوهم لما احتيج إلى التوحيد، وعن هذا قال الشبلي(١٥٧) رحمه الله تعالى ما معناه: "لولا أنك أمرتني بلا إله إلا الله لما قلتها، إذ ليس معه سواه فأنفيه". فإذن ففي التوحيد عين الشرك، وذلك جحود التوحيد كما هو معنى بيت أبي عبد الله الأنصاري، فهذا معنى البيتين.

وعليه فلا تخصيص لعموم الملازمة بين الشرك والتوحيد في كل واحد، إلا أنه تردد في الخاطر تخصيص أكبر الأكابر، إذ شأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء الشئون، في الظهور والبطون، فالأدب أن يكون بالتخصيص أوجب.

إلا أنه ما فتح الله بوجه هذا التخصيص على أوضح بيان وأكمل تبيان، إلا في سويعة العصر الثالث من رمضان من عام ألف ومائة وثلاثة وستين [١١٦٣هـ]، وذلك بالنقل والعقل:

(١٥٧) هو الشيخ الزاهد أبو بكر دُلف بن جحدر الشبلي البغدادي، أصله من الشبلية وراء سمرقند، ولد في سامراء سنة ٢٤٧هـ، وكان أبوه من رجال الحكم في سامراء. صحب الجنيد، وكان الشبلي فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، ومحدّث، توفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ.

أما الأول فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾[١٥٨]، فعمَّ الكل ثم خصَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[١٥٩]، وأيضًا فقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾[١٦٠]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[١٦١] إلى آخر السورة. فعمَّ بالكفر الجميع غير السيد الشفيع، وخصه بدين مخصوص، فتدبر فيما يشير إليه القرآن الأفخر، من المعنى العالي الأكبر، وإن كان ظاهره أظهر.

وأما العقل فلأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مظهر الوحدة، إذ هو من نور الذات، وغيره مظهر الكثرة، لأنه من أنوار الصفات، ومظهره الوحدة لا يكون إلا موحدًا أبدًا بلا توحيد البتة للتلازم، كما أن مظهر الكثرة لا يكون إلا مُشركًا كذلك وإن وجد، لأن الشاهد فرع المشهود، والصادر فرع المورود. وبهذا التدقيق ثبت التخصيص بالتحقيق، والحمد لله المولى الكبير، والشكر لله على القليل والكثير.

---

(١٥٨) سورة الانفطار الآية ٩.

(١٥٩) سورة الماعون الآية ١.

(١٦٠) سورة الأنعام الآية ٩١.

(١٦١) سورة الكافرون الآية ١.

[السؤال الحادي والأربعون]

ومن نظائرها ما سأله الشريف الوجيه المأنوس، السيد عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس(١٦٢)، كان في النفوس بلا نفوس، وفي الطروس بلا فلوس.

ومُلخّص سؤاله: ما قولكم أدام الله وجودكم وأدام النفع بكم، هل مقام أصحاب القطبية الكبرى وغيرهم من الأفراد أعلى أم مقام مقام المجتهدين من العلماء؟.

لأني تذاكر معي البعض ويظهر منه أن مقام المجتهدين أعلى، زعمًا أن علماء الظاهر أفضل من علماء الباطن، بنى على أن نفعهم متعد حسب رؤيته، مع أن الذي يختلج في صدر ولدكم أن مقام الأولين أعلى، آخذًا من قول بعضهم عن قول ابن حجر(١٦٣): "إن الشيخ محيي الدين ابن عربي قدّس سره بلغ مقام الاجتهاد المطلق"، هذا حسب ما ظهر للشيخ ابن حجر، وإلا فمقامه فوق ذلك، والقصد منكم جواب شافي.

---

(١٦٢) هو عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الحسيني التريمي الشافعي، من آل باعلوي، ولد سنة ١١٣٥هـ باليمن، وهاجر لعدة بلاد داعيًا وسائحًا، له تصانيف كثيرة تنوف الستين بين منثور ومنظوم في عدة علوم. توفي بالقاهرة سنة ١١٩٢هـ بالقرب من مشهد السيدة زينب.

(١٦٣) هو شيخ الإسلام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي، مُحدث، وأمير المؤمنين في الحديث، أصله من عسقلان، وولد سنة ٧٧٣هـ بالفسطاط، قاضي قضاة الشافعية، له أكثر من ٢٧٠ مصنفًا في شتى العلوم أشهرها شرحه لصحيح البخاري، توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ.

فَقُلْتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، الجاعل فوق كل ذي علم عليم، وأكمل الصلاة والتسليم على الرحمن الرحيم، محمد ذي الخلق العظيم، وآله وصحبه ذوي الفيض العميم، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(١٦٤)، رب زدني علمًا تفتحُ به أعيُنًا عميا وآذانًا صُمًّا.

وبعدُ، فقد ورد هذا السؤال على من ليس له نعال ولا قول ولا فعال، صفر اليدين، قصير الزندين، باعه طويل في التقصير، وذراعه قصير في التفضيل، لا هو من هؤلاء ولا إلى هؤلاء، غير أن قلمه متهجم، وعلمه منهكم، وقد جرى القلم بما به الله حكم في [الأسئلة النفسيَّة والأجوبة القُدسيَّة]، في هذا المبحث بما يشفي غل البصير، ويكفي لب الخبير، فلتنظروا.

ثم والله أعلم غير أنه لم يقع التمييز في ذلك التطريز، بل فيه التصريح بتفاوت المراتب من غير تعيين أهلها، والأمر كذلك، إذ ليس كل من وُلِّي القطبية والإفراد أفضل من كل من المجتهدين، ولا كل من المجتهدين أفضل من كل منهم، مع كون المجتهدين جامعيين لمقام الاجتهاد والولاية، فصار الكلام فيهم كالكلام في رسالة النبي وولايته، ولا شك عند المُحققين أن ولاية النبي أفضل

(١٦٤) سورة الكهف الآية ١٠.

من رسالته، لأنها معاملة بينه وبين الله تعالى، بخلاف الرسالة فإنها معاملة بينه وبين العباد، ولا شك أن العلم بعرفان الله أفضل من العلم بأحكام الله، كذلك ولاية المجتهد أفضل من اجتهاده لما تقرَّر.

وأما كون علماء الظاهر نفعهم مُتعدّ ظاهر، وكون علماء الباطن نفعهم لازم قاصر، فذلك من النظر القاصر، إذ كُلٌّ من الفريقين فيه ما تقر به العين، من تعد وقصور ولزوم وعبور، مع أنه لو شاهد البصير في الظاهر والباطن لرأى تعدي نفع الباطن أكثر وأكبر، إذ به يقوم أمر الدين والدنيا والآخرة عمومًا وخصوصًا، فكم وكم من قاص في أقصى خراب، كان سببًا لملء كل وعاء وجراب.

فانظر إلى جلساء السلطان ومدبري مملكته في شهوده وحضرته، هل الحكم حكمهم والأمر أمرهم والنفع لهم، أم لسياس الدواب، ومن هو وراء الأبواب، هيهات هيهات ليس الحاضر كالآت، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[١٦٥]، وهذا علم القلم لا علم عبد الحِكَم، فما هو كما يشهد الله إلا كالسراب، الذي يحسبه الظمآن ماءًا، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه وسلَّم، وهذا ما كتبتُ إليه.

---

(١٦٥) سورة الواقعة الآية ١٠.

وأقول أيضًا: لو تساءل أكابر العلماء عن سبب علمهم، لم يُجبك أحدٌ منهم، إلا أن سببه دعوة من ولي أو نظرة أو نفحة إلا أقل القليل، كما رأينا ذلك من مشائخنا، فصار جميع نفعهم من نفع الأولياء، وأيضًا ما رأينا أحدًا يلجئ إليه أو يُستغاث عند الملمات إلا إياهم، بل وأكابر الأولياء يلجؤون ويستغيثون بهم، إلا أولو الحسد المُتعصّبون الجامدون الجاحدون، نعوذ بالله منهم.

وأيضًا كمال العز والجاه ونفوذ الكلمة على الولاة، ليس إلا لهم في كل زمان كما هو مُشاهد، حتى أكابر العلماء يترددون إليهم، ويوقرونهم ويخدمونهم، ويرون ذلك من أعظم شرفهم، وأجلّ ما يتقربون به إلى الله تعالى، وأجلّ ما يقبلون به حتى عند الخلق.

وأيضًا كل الخلق لا يرتضون ويحبون محبة صادقة ويشيرون، إلا لمن كان منهم يحب وليًا أو يتردد إليه حتى يعتقدونه لذلك، كذا جرت سنة الله في عباده، وإذا كان اتباع السلطان، وكل من يلوذ بهم يحب لأجله، فما بالك بسلطان السلاطين الملك الحق المبين. اللَّهُمَّ ازرقنا حبك وحب من أحبك، واجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ.

[السؤال الثاني والأربعون]

وسألني: ما حكم الكيمياء، وهل تصح وتوجد وتقع أم لا؟.

فَقُلْتُ: اعلم أن الناس اضطربوا فيها اضطرابًا كثيرًا، وخبطوا خبطًا كبيرًا، فبين نافٍ لعموم الفساد في غالب البلاد، وبين مُثبتٍ لوقوع صحة ذلك من أفراد الأفراد، وأنا أُفصّل لك الأمر، وأوضحه بما يفتح الله به، وأظن أنه فصل الخطاب، وما بعده جواب.

فأقولُ: هي صحيحة واقعة جيدة لأهلها بشروطها، وذلك أنها على قسمين: قسمٌ لأولياء الله تعالى، وهي كرامة من الله لهم، ولمن أكرموه بها خصوصًا وعمومًا فلا تتعداهم. وقسمٌ للحكماء أدركوها بعقولهم الذكية ونُهَاهم النورانية بأجزاء معلومة وكيفيات مخصوصة وكمال صنع وإتقان، وتحرير وميزان، وهي تفسد منهم بأدنى خلل، فما بال غيرهم ممن لا يعدونه عاقلاً كأمثالنا.

وعلى كلا القسمين فهي لأمثالنا كالمحال، لأنها إن كانت كرامة فلا تتعدى أهلها، أو صناعة فمن هو أهل لها، فإن صحّت اتفاقًا فلا تعويل عليها، فطالبها أكمه، ورائمها أبله.

بل قال الشيخ إبراهيم المتبولي[١٦٦]: "ثلاثةٌ من الناس لا يرجى فلاحهم، لاستحكام المقت فيهم: من يحب اللواط، ومن يعمل الكيمياء، ومن يريد فتح المطالب".

وقال الشيخ أفضل الدين[١٦٧]: "إن أصحاب الكيمياء مأخوذٌ عليهم العهد من أيام جابر، أن لا يذكروا قط تدبيرًا كاملاً، وإنما يحذفون منه أركانًا وشروطًا، ويكلوا علم ذلك إلى العالم بالفن، وجميع ما يذكرونه من الرموز واللغوز وأسماء العقاقير". المراد به غير ما يتبادر إلى الأذهان.

وقال الشيخ الخواص: "لا يصح علم الكيمياء من طريق جابر، إلا لمن صار عنده الذهب كالتراب على حد سواء، فإنه من علم الحكمة، والحكمة لا تدخل قلبًا يحب الدنيا".

وقال في حق المطالب: "مع أن أصحاب الكنوز قد أخذوا العهد على جميع الخدامين الموكلين، أنهم لا يفتحون ذلك المطلب، فلا يكون ذلك إلا بعد كفره بالله تعالى، فليختر من يريد أن يفتح المطلب دينه أو دنياه" انتهى.

---

(١٦٦) هو برهان الدّين إبراهيم بن علي الأنصاري المتبولي الأحمدي المصري، صاحب الكرامات والبركات، قدم من متبولة إلى طنطا ثم القاهرة، وأنشأ مسجدا بطنطا، كان نادرة عصره وصوفيّ وقته تربيًا وإرشادًا. له كتاب "الأخلاق المتبولية"، توفي سنة ٨٧٧ هـ.

(١٦٧) هو أفضل الدين الخونجي، شيخ عالم بالحكمة والطب والمنطق، فارسي انتقل إلى مصر، ولد بأذربيجان سنة ٥٩٠هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٤٦هـ.

فإياك يا أخي والطمع في غير مطمع، والتفريق في غير مجمع، وما لم ينفع فادفع. والكيمياء الثابتة الصحيحة هي تقوى الله تعالى التي هي رأس الأس كله، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١٦٨).

[السؤال الثالث والأربعون]

وسألني: قد ثبت واستقر أفضلية الصحابة رضي الله عنهم بالأحاديث والآثار، وجمهورية العلماء والأخيار، فما وجه ما اقتضى ضد ذلك من الأحاديث والآثار، كحديث أحمد والدارمي والطبراني، الحسن، بل الصحيح عند الحاكم، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟، قَالَ: قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي»(١٦٩). وَكَحَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ: عَنْ عُمَرَ قَالَ «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ الْخَلْقِ أَفْضَلُ إِيمَانًا؟، قُلْنَا: الْمَلَائِكَةُ، قَالَ: وَحُقَّ لَهُمْ بَلْ غَيْرُهُمْ، قُلْنَا: الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: وَحُقَّ لَهُمْ بَلْ وَغَيْرُهُمْ، ثُمَّ

---

(١٦٨) سورة الطلاق الآيتين ٢-٣.

(١٦٩) كما رواه أبو يعلى في "مسنده"، وابن عساكر في "تاريخه".

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي، فَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا»(١٧٠).

وكحديث أحمد والترمذي وأبي يعلى والطبراني: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». وَحَدِيث ابْن عَسَاكِرَ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مُبَارَكَةٌ لَا يُدْرَى أَوَّلُهَا خَيْرٌ أَوْ آخِرُهَا». وَحَدِيث أَبِي أُمَامَةَ: «طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي مَرَّة، وَطُوبَى لِمَنْ لَمْ يَرَنِي وَآمَنَ بِي سَبْعَ مَرَّاتٍ». وَحَدِيث الطَّبَرَانِيّ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ زَمَانَ صَبْرٍ، للْمُتَمَسِّكِ فِيهِ أَجْرُ خَمْسِينَ شَهِيدًا مِنْكُمْ». وَمَا فِي أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيّ وَابْنِ مَاجه وَابْنِ حِبَّانَ: «وَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟، قَالَ: لَا بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»(١٧١). وَمَا فِي مُسْلِمٍ: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ»(١٧٢). لِشُمُولِ التَّابع لِلصَّحَابِيّ لُغَة وَنَحْو ذَلِكَ.

(١٧٠) كما رواه أبو يعلى في "مسنده"، والحاكم في "المستدرك".

(١٧١) كما رواه البزّار في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم في "المستدرك".

(١٧٢) كما رواه ابن سعد في "الطبقات الكبرى"، وأحمد في "مسنده"، والحاكم في "المستدرك"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "دلائل النبوة".

وما روي: "أن عمر بن عبد العزيز لما وُلي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد اللَّه: أن اكتب إليّ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر، لأن زمانك ليس كزمان عمر ولا رجالك. قال: وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلهم كتب بمثل قول سالم"(١٧٣).

فكتبهم ذلك مع كونهم أعلم ممن بعدهم وأعرف بما عندهم صريحٌ في مناقضة المشهور، ومعارضة المتداول بعدهم.

وعنه قال ابن عبد البر(١٧٤): "فهذه الأحاديثُ تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها، التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل، إلا أهل بدر والحديبية. ومن تدَّبر هذا الباب، بان له الصواب، واللَّه يؤتي فضله من يشاء"(١٧٥).

فَقُلْتُ: أما الجواب من حيث الظاهر فقد وقع من أهله ومرّ، وهو أنه لا يعارض هذا الوارد في فضل الصحابة رضي اللَّه عنهم، لكثرته وقوته وصحته، حتى لقد أجمع عليه فلا تناقض، وهذا الذي عليه

(١٧٣) ذكره ابن عبد البر في "التمهيد".

(١٧٤) الإمام شيخ الإسلام حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد اللَّه عبد البر النمري القرطبي المالكي، ساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان، وكان له بصر بالفقه والنسب والأخبار ألف كتبا كثيرة منها: "الاستيعاب" و"التمهيد" و"الانتقاء"، ولد سنة ٣٦٨هـ، وتوفي سنة ٤٦٣ هـ.

(١٧٥) التمهيد لابن عبد البر.

الجمهور، حتى أن خلافه كأنه غير مسطور، وقد حققتُ ذلك آنفًا في هذا الكتاب، بما يشفي اللباب، ويكفي لأولي الألباب.

وأما من حيث الباطن فمزاياه تعالى لا تحصر، وفضائله لا تقصر، فأفضلياته على حسب ذلك تنثر، وخيرياته على قدره تمطر وتشهر، فمن عظم دليله جل جليله وكثر قليله وشهر فضيله، فذوا الدليل المتواتر هو الأفضل بالقطع الباتر، وذوا البرهان المشهور هو الأخيَر والمذكور، ومن لا فإلى الله والتفضيل لدى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعموم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(١٧٦)، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾(١٧٧)، ويقول إن الله ما يشاء، وهو قدير على ما يشاء، فعلى ما الجزم بما لا دخل فيه بعلم ولا وهم؟، فمن يحكم بالريب سوى من يرجم بالغيب، فدع المستور، ومن ثمة مشهور ليوم البعث والنشور.

---

(١٧٦) سورة الحديد الآية ٢١.

(١٧٧) سورة البقرة الآية ١٠٥.

[السؤال الرابع والأربعون]

ومن لواحقها هذا السؤال، الوارد من بعض أهل مكة والآل، وهو:

الحمدُ لله والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الفائزين من اللَّه، وسلّم تسليمًا، ما قولكم نفع اللَّه بكم في شخص فرَّخت في قلبه الصفات الذميمة، حتى استحكمت وأعياه علاجها، واستولت عليه الخواطر الرديئة، حتى أوقعته في سوء الظن بالخلق بل بالخالق، وتسارعت جوارحه لارتكاب عظائم الذنوب، وتقاعدت عن الطاعة حتى صارت عليه أثقل من الجبال، وكلما أراد التوبة لم يجد قلبه مائلاً إليها، بل إلى التسويف وطول الأمل، وأعياه علاج هذا الداء العضال، بعد أن توسّل بخواص الخواص، وبسيد أهل الاختصاص، فلم ير علامات القبول.

فالمطلوب من حضرتكم العلوية وهمتكم العلية أن تصنعوا له الدواء، وتتوجهوا له في الشفاء، فإنه صار غريق تيار الخذلان، وصلى اللَّه على سيدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أولي الإحسان.

فَقُلْتُ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، آهٍ وآهٍ وآهٍ، بلا عد ولا أشباه، هذا سؤال حالي وحال إشكالي، فيا أيها السائل لعلك مُكاشف، أو عساك طبيب مصادف، لا شك ولا ريب أن ذلك دائي والعيب، فإن كنتَ الطبيب، فأنا العليلُ القريبُ، وإن كنت مثلي، فدوائي غير خفي على شكلي.

فعلماء الظاهر والباطن لم يتركوا شيئًا من الدواء، ولكن إنما يفيد الدواء إذا استعمل على السوى، وأما على الأخلال فلا يوجب إلا الانفصال، وهو من سنن هذا الزمان وأهله، وذلك أنهم لا أساس لهم ولا رأس.

أما الأساس فتجنّب الحرام وهم لا يبالون. وقد قال سهل قدّس سره: "من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى"[١٧٨]. وفي الحديث: «مَنْ أَكَلَ الْحَلاَلَ أَطَاعَ اللَّهَ، أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ، وَمَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ عَصَى اللَّهَ أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ»[١٧٩]. وَعَنْهُ قُلْتُ:

أكل الحرام لذي الفواحش مثمر   أما الحلال سوى التقى لا يثمر
فاختر لنفسك ما تريد أخا الحجا   إما تدمرها وإما تعمر

(١٧٨) ذكره الغزالي في "إحياء علوم الدين".

(١٧٩) ذكره ابن الحاج في "المدخل".

وقال بعضُ الفقراء: "كُلْ ما شئت فمثله تفعل، واصحب من شئت فأنت على دينه". وعن هذا طمَّ الفساد، وعمَّ القبح البلاد، حتى أن الأخيار تشاع عنهم الفواحش الكبار، ومع ذلك لهم أوجه ثابتة، بحيث لا يستحيون بل يرون أنهم الناس، وغيرهم يزيد ويفتخر بالقبائح، فكيف ترجى توبة من يستحسن القبائح ويفتخر بها، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١٨٠)، منا ومن زمننا.

أما الرأس فالوقوف على الحدود ولزوم العهود، وذلك مفقود، نعم لو صدقنا في هذا الاعتراف لتلافانا المزعج الرباني والجاذب الرحماني بلا واسطة، أو بواسطة شيخ ذي همة، رافع لكل مهمة، وكاشف لكل غمة، أو بالتوفيق للاعتزال، ومجانبة الأنذال، والتزام التضرع والابتهال.

ولكن أين الصدق؟ فلهو أعز من الكبريت الأحمر، حتى في خواص البشر، وكيف يوجد وكثير من الأخيار لو ترشده إلى أدنى مراتب الإيمان والإسلام لا يمتثل ولا يقبل، وأكثر المؤمنين أخس أفعالاً من الكفار الجاحدين، وجلهم أعزَّ الدراهم والدينار معزةً، لم يعز الله ورسوله ذرة من جبالها، ولو فعلوا ذلك مع الله لكانوا أخص عباد الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١٨٠) سورة البقرة الآية ١٥٦.

وعن هذا قُلْتُ في بعض المنفرجات:

تَبًّـــا لِعِبَـــادٍ قَـــدْ عَبَـــدُوا صَـــنَمَ الأَهْـــوَاءِ عَلَـــى عِـــوَجِ
فَالـــدُّنْيَا الـــدُّنْيَا دِيـــنُهُمُ وَاللَّهُ وَأَحْمَـــدُ فِـــي الهَـــيَجِ

وقُلْتُ في الطائيَّة:

دَارَ الْقَبِـيحُ وَدَارَ الـزُّورُ وَالخَلْـطُ وَصَالَ هَذَا المِرَا وَالجَهْلُ وَالخَبْطُ
وَعَـادَ دِيـنُ الـوَرَى دُنْيَـا وَرَبُّهُـمُ ذَاكَ الـدُّرَيْهِمُ وَالـدِّينَارُ وَالمَخْـطُ
وَصَارَتِ النَّاسُ كَالأَنْعَامِ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الكَلَا وَالهَوَى وَالشَّيْلُ وَالحَطُّ

وإلى آخر القصيدة، ومن أرادها فعليه بـ[العقد المنظم].

وإلى هنا انتهى جواب السائل المتريس، رئيس نفيس لا خُميْس ولا سُديْس، فعليه بما أجراه اللَّه على يدي هذا الحقير من تواليف وخصوصًا الدواوين، وسيما أصغرها وهو [السر العجيب في مدح الحبيب] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبذلك إن شاء اللَّه يحصل له القلق، ويزيد الشبق، وتهيج الحرق، فيشم الروائح، ويلم اللوائح، واللَّه المُتفضّل.

[السؤال الخامس والأربعون]

ومن توابعها ما ورد من اليمن إلى مكة ومنها إلينا، وهو سؤال عن الاستغاثة بالأولياء والنداء لهم عند الشدائد، هل للقائل للجواز دليل جواز ذلك؟.

فإن بعض المنتسبين إلى العلم يشدد النكير على القائل بالجواز، ويقول: إن ذلك مما يزاحم التوحيد، حتى صرَّح أن التوسل بهم وطلب الاستغاثة عند قبورهم غير جائز، واستدل بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(١٨١)]، أو بقوله تعالى في التنزيل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[(١٨٢)].

وهل فعل الذين يسمون أنفسهم فقراء، ويطعنون عيونهم ويحملون الحيَّات ونحو ذلك داخل حد الكرامة، أم ذلك من تخبُّط الشيطان؟، ويكون نداؤهم عند ذلك لبعض الأولياء من التمويهات، أفتونا.

---

(١٨١) رواه البخاري في "صحيحه"، ومسلم في "صحيحه"، ومالك في "الموطإ"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، وعبد الرزّاق في "مصنفه"، وابن سعد في "طبقاته"، وابن أبي شيبة في "مصنفه"، وأبو داود في "سننه"، والبزّار في "مسنده"، والنسائي في "سننه"، وأبو يعلى في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "سننه".

(١٨٢) سورة الزمر الآية ٣.

فَقُلْتُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(١٨٣)، ربي زدني علمًا، تفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صُمًّا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾(١٨٤)، وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾(١٨٥) وهم من الوسائل والأبواب، ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١٨٦) ولا تفتح إلا بمفاتيحها، والظاهر عنوان الباطن، والسلطان المجازي لا يقبل من أتاه إلا من أبوابه، في أي أمر تعلق به ليتم حكمه وملكه، وينتظم أمره وسلكه، وإلا وقع الانخرام واختل النظام.

كذلك ملك الملوك سبحانه وتعالى كذا جرت سننه تعالى وسنن غيره، وقد جرى على ذلك صالح السلف والخلف، ومعتبر العلماء أولي الشرف، وقد استغاث عمر بالعباس رضي اللَّه عنهما، وكان الشافعي رضي اللَّه عنه يتردد إلى قبر أبي حنيفة ويتوسل به.

وكم وكم ينده الأكابر للأكابر فضلاً عن الأصاغر، ولا ينكره إلا مكابر، وإذا لم يتخذ المشائخ عند المهمات، وتنقذ لدى الملمات، فأي فائدة في الاعتقاد، وأي ثمرة للانقياد، وأي زاعم للعلم وهو

---

(١٨٣) سورة البقرة الآية ٣٢.

(١٨٤) سورة المائدة الآية ٣٥.

(١٨٥) سورة البقرة الآية ١٨٩.

(١٨٦) سورة الزمر الآية ٦٣.

مطموس، ويرى ما فعله العلماء والأولياء حتى في الطروس، أَهل عَمَّ الجميع الجهل؟، أم زال عنهم الحجا والعقل؟، كلا واللَّه أنهم العلماء العقلاء والأولياء الفضلاء. ويكفي المنكر أنه لا يوافقه إلا كل خائب متحسر، وهم أقل القليل في كل زمن وجيل.

وأما من يُسمُّون الفقراء وليسوا فقراء، فلا شك أن غالبهم أتباع الشيطان، إذا لم يتخلقوا بأخلاق الرحمن، وفعلهم ذلك من التحبيطات، لكن لما كان للأولياء كمال الفتوة وتمام المروة، أبرزوا على أيديهم تلك الكرامات، كما أبرز سبحانه وتعالى كثيرًا من خرق العوائد على يد كثير من معاند وجاحد، إما استدراجًا وإهداء وإرشاد الآخر الأمر ليختم له بالخير.

وأولياء اللَّه تخلّقوا بأخلاق اللَّه، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[١٨٧]، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلَّى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

(١٨٧) سورة البقرة الآية ٢٦.

[السـؤال السـادس والأربعـون]

وسألني: ما معنى الإتيان والتجلي والرؤية والصورة وأحسنها في الأحاديث، ففي الترمذي من حديث ابن عباس وحسَّنه: «أَتَانِي اللَّيْلَة رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٨٨). ومن حديث معاذ بن جبل وصحّحه: «فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٨٩). وفي الطبراني من حديث جابر بن سمرة: «إِنَّ اللَّهَ تَجَلَّى لِي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٩٠). ومن حديث أبي هريرة: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي مَنَامِي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٩١). ومن حديث أبي رافع: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ». ومن حديث أبي أمامة: «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٩٢). ومن حديث أبي عبيدة بن الجراح: «رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٩٣). وَمِنْ حَدِيثِ عَبْد الرَّحْمِن عَائِش الْحَضْرَمِيّ: «وَمَا لِي لَا أَكُونُ كَذَلِكَ وَقَدْ تَبَدَّى لِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»(١٩٤) جَوَابًا لِمَنْ

---

(١٨٨) كما رواه عبد بن حميد في "مسنده".

(١٨٩) كما رواه أحمد في "مسنده"، وابن عساكر في "تاريخه".

(١٩٠) كما رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه"، وأحمد في "مسنده"، وابن عساكر في "تاريخه".

(١٩١) رواه الدارقطني في "رؤية الله".

(١٩٢) رواه أحمد في "مسنده"، وعبد الرزاق في "تفسيره"، والترمذي في "سننه"، والبزّار في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير".

(١٩٣) راوه الطبراني في "الدعاء"، والخطيب في "تاريخه".

(١٩٤) رواه الطبراني في "الدعاء"، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، وابن عساكر في ""تاريخه".

قَالَ: «مَا رَأَيْنَا أَسْفَرَ وَجْهًا مِنْكَ الْغَدَاةَ». وَمِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ: «إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَتَانِي اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»[١٩٥]، وَنَحْو ذَلِكَ.

فَقُلْتُ: الإيتان منامي ويقظي، فالأول ظاهر إذ هو الرؤيا، والثاني هو التجلي وهو الكشف عن السبحات الإلهية والنعوت اللاهوتية، برفع الحجب الناسوتية والملكوتية، وهو ذاتي إن كان نورًا مطلقًا محيطًا لا بكيف ولا جهة، وصفاتي إذا كان صوري بأي صورة، إذ يتجلى سبحانه بما يلائم المُتجلى له بحسب حاله ومقامه في جماد وشجر وحيوان وبشر وغير ذلك. وتفصيل ذلك ليس هذا محله، وتوضيحه في كتابنا [جواهر القلائد].

والرؤية منامية وهي الرؤية، ويقظية وهي بالبصر وبالبصيرة، وهي النظر والمشاهدة، والأحاديث بعضها صريح في المنام، وبعضها محتمل المرام، ولا خلاف في جوازها ووقوعها بالقلب، أما بالعين فجائزة كذلك، ووقعت له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج على التحقيق، وعموم بعض الأحاديث المتقدمة يقتضي في غيرها أيضًا، وهو قد يعضد أحد قوليْ الأشعري بجواز وقوعها بالبصر للولي في الدنيا، وإن كان مرجوحًا، وهو الحق عندي، ولا أظن أن الأشعري وهنه إلا خشية من غثاء أهل الظاهر وشن الغارة عليه، وأي من أن

(١٩٥) رواه ابن أبي عاصم في "السُّنة"، والطبراني في "الدعاء"، والدارقطني في "رؤية اللَّه"، والبزّار في "مسنده".

يخلع عليه النعوت الإلهية، فيراه به كما في الحديث القدسي: «وَبِي يُبْصِرُ» أي مُطلقًا أنا وغيري. ولا يعارضه غيره إذ كُلٌّ من الكتاب والسُّنَّة بحسب الأطوار والأحوال، إلا ما نص الشارع بنفسه على نسخه، وليس لغيره ذلك أصلاً، هذا ما ندينُ اللّٰه به.

والصورة الجسم وتقدَّم، وأحسنها يحتمل غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمله هو إذ هو الأحسن صورة بلا ريب، فرأى ربه فيه، إذ هو مرآته، كما صرح بذلك حديث: «الْمُؤْمِنَ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ»، وإليه يشير: «مَا رَأَيْنَا أَسْفَرَ وَجْهًا مِنْكَ الْغَدَاةَ. قَالَ: وَمَا لِي لَا أَكُونُ كَذَلِكَ وَقَدْ تَبَدَّى لِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

تنبيهٌ: مقتضى حديث المرآة أنه يرى بنفسه في مولاه، ولا مانع من التقديس المانع وما رأيته، وأظن أنه ما سطّر في كتاب وأجزم بأنه من خصوصياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ ليس في استعداد غيره ذلك.

[السؤال السابع والأربعون]

وسألني: ما بال الأوَّلِين تسرع مؤاخذتهم وعقوبتهم ومعاتبتهم؟، كتعقُّب الفقر للزنا، والمحق للربا، على وفق النصوص ونحوهما، وكسرعة البطش بمن أقلّ أدبه في الحضرات الشريفة كالبيت والحضرة النبوية، وحضرات الأولياء أولي الغارات كالحبر وغيره رضي الله عنهم، واليوم بخلافه حتى يقل غاية الأدب والفواحش في جوف البيت الشريف، وبين يدي كل ذي قدر منيف، ولم ير شيئًا من المؤاخذة إلا نادرًا.

فَقُلْتُ: اعلم أنه سبحانه وتعالى أخلف غالب العادات، لما أنه حين خرقها وزمان فرقها، وسببه أنه لا يؤاخذ غالبًا إلا من يعبأ به، وأما الهمج الرعاع فلا يعبأ بهم ولا معاتبة لهم ولا نزاع، وكل العالَم اليوم كذلك إلا نادر النادر، والمؤاخذة لا تكون إلا للفائدة، وإذا لم تفد فأي عائدة، فيبقى الصك بلا فك، وقد شاهدنا ما لا يحصى، ما بطش بأحد إلا طغى الآخر منه بل وازداد، وإذا كان كذلك ينقلب الراحمون منتقمين وما أراد، وأمن الرحمة نقمة، إذ لا تثمر المؤاخذة فائدة، ومن يهوى دوام الانتقام واستمرار البطش على الدوام. فلهذا ولذاك حذف بالكل هنالك.

ومن هنا تفهم سر ما هو مُشاهد من عدم ترقيات العباد، بل تسفُّلهم إلى أسفل بحسب الاستعداد، وما ذاك إلا لاقتضاء الزمان بمقتضى مظهر اسمه القابض، ومجلى الاسم الخافض. وعنه قلتُ في ذيل [سُباعيات الحِكم]: "الْعَالَمُ فِي الانْتِكَاسِ فَمَنْ ذَا يُقِيمُ لَهُ الرَّاسُ. أَثَمَّ شَرِيكٌ أَمْ ضِدٌّ هَيْهَاتَ لَا ضِدٌّ وَلَا نِدٌّ".

وعن هذا كان الكل إلا ما ندر لا يطلب الهداية والتوفيق والاستقامة إلا باللسان دون القلب، كما هو مُشاهد كالشمس، إذا ليس قصدهم سوى استمرار عيش الدنيا وصفاها كما لا يخفى. وعنه قلتُ:

أيستُ من الأنام بكل وجه　　فما منهم مريد للجليل
سوى في ألف ألف قلّ قلٍّ　　وهو أدنى القليل من القليل

وقلتُ أيضًا:

ما في الزمان سوى العكوس　　ثم النحوس مع النكوس
لم لا ودين أُهيله　　تلك الدراهم والفلوس

[السؤال الثامن والأربعون]

وسألني: المعروف والمُقرّر والمشهور والمُسطّر أن مقام العبودية أعظم، وأسماؤها أشرف وأكرم للعبد المؤخّر والمقدّم، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»(١٩٦). ولذا لم يوصف أفضل العباد في أفضل الأحوال إلا بها، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾(١٩٧)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(١٩٨)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(١٩٩) ونحوه. وعنه قيل:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

ولذا قال على سبيل الإرشاد إلى السداد، العارف الأجل الودود السيد مشيخ علوي باعبود(٢٠٠)، كان لي وله الودود:

أَنَا عِنْدَهَا ... وَلَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا

فهل هذا الإجماع مُطلق، أم ما تفصله هو التحقيق المحقق؟.

---

(١٩٦) رواه مسلم في "صحيحه"، وأحمد في "مسنده"، وابن سعد في "الطبقات"، والترمذي في "سننه"، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة"، والبيهقي في "سننه".

(١٩٧) سورة الإسراء الآية ١.

(١٩٨) سورة الكهف الآية ١.

(١٩٩) سورة الفرقان الآية ١.

(٢٠٠) هو العارف بالله السيد مشيخ باعبود العلوي، قدم المدينة، كان صاحب كرامات ظاهرة، ومقامات فاخرة، كثيرا ما يتكلم بكلام القوم، لا يُنكر فضله. توفي بالمدينة بجانب قبة الأزواج، سنة ١١٧٠هـ. له رسالة التصوف عملها لشيخ الحرم النبوي. وديوان في الغزل.

فَقُلْتُ: الخاص محب ومحبوب، والمقامات محبية ومحبوبية، فالمحب والمحبية هي الأجدر بالعبدية والعبودية، وذلك أشرف لها من كل مزية، وهذا مُشاهد وقد مرّ دليله، والمحبوب والمحبوبية القمين(٢٠١) بها السيادة والتبجيل والزيادة.

ولذا قالوا: لم يدعُ اللَّه أنبياءه إلا بأسمائهم ونحوها، ولم يدعُ نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾(٢٠٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾(٢٠٣) ونحوه، تبجيلاً وتعظيمًا وإجلالاً وتكريمًا، حتى قيل في معنى يسن يا سيد.

وأقولُ: ليس المُراد سيد الخلق العدم، بل سيد ذي القدم، وإليه أشار المُختار بقوله: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ» أي لا فخر بسيادتي عليهم بل سيادتي على السيد الحقيقي، لأني محبوبه، وعادة كل محب لا يدعو محبوبه إلا بيا سيدي. وهذا واللَّه الشرف الأكبر للحبيب الأفخر، وعنه قُلتُ بلسانه:

وَلَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا سَيِّدِي ... فَإِنَّنِي أَعَزُّ مَا عِنْدَهَا

وَقلتُ في دعاء المحبة لمحبوبها:

قَدْ غَدَى عَبْدهَا ... وَلَا تَدْعهُ إِلَّا بِيَا سَيِّدِهَا

(٢٠١) القمين: الخليق، الجدير. "القاموس".

(٢٠٢) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢٠٣) سورة المائدة الآية ٤١.

وهذه لفظة عرفية، والفرق مثل الشمس بين من يقول: عبدي عبدي، ومن يقول: سيدي وعزيزي وأجل ما عندي، فلكل مقام مقال، ولكل حال شرف وكمال، وعنه ما عرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا باسميْهِ محمد وأحمد، فافهم هذا التحقيق، ولعلك لا تجده لغيرنا، وكم وكم لنا من تحقيقات، لو أُلِّفت ملأت مُجلدات، والمنة لله والفضل بيد الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نعم، توقّف بعض جمادي الطبع في كونه يخاطب بيا سيدنا، وذلك من عدم العلم لا من الأدب بقسم، فإن آداب الكُمّل وكمالاتهم في كل مقام فرع آدابه وكمالاته سبحانه، بل قطرة من بحور فيوضاته، ألا تراه سبحانه لا يجيب أحدًا إلا بلبيك، ويقول في بعض كتبه: «هَلْ لَقِيتَ مَنْ هُوَ أَشْفَقُ مِنِّي عَلَيْكَ؟»، وَيُقُولُ: «مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، وَجُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي»(٢٠٤). وَيقُولُ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٢٠٥)، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾(٢٠٦).

---

(٢٠٤) رواه مسلم في "صحيحه"، والبخاري "في الأدب المفرد"، وابن حبان في "صحيحه"، والطبراني في "مكارم الأخلاق"، والبيهقي في "شعب الإيمان". وبقية الحديث: «وَعَطِشْت فَلَمْ تَسْقِنِي، فَيَقُولُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: مَرِضَ عَبْدِي فُلَانٌ، وَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ».

(٢٠٥) سورة طه الآية ٤٤.

(٢٠٦) سورة محمد الآية ٧.

وعن هذا كان ما كان من الواصلين من المباسطات العجيبة مع رب العالمين. كما حُكي في [الفتوحات] عن سليمان الديلمي، قال: "باسطني يومًا في سري في الملك، فقال لي: إن ملكي عظيم، فقلت له: ملكي أعظم من ملكك، فقال: كيف تقول؟، فقلتُ له: مثلك في ملكي، وليس مثلك في ملكك، فقال: صدقت".

وحُكي عن أبي يزيد قدّس سره في مناجاته من قوله: "ملكي أعظم من ملكك، لكونك لي وأنا لك، فأنا ملكك وأنت ملكي، وأنت العظيم الأعظم، وملكي أنت، فأنت أعظم من ملكك وهو أنا".

ولهذا يسمي الحكيم الترمذي الحق سبحانه ملك الملك، إذ العبد لا يملك غير سيده، ولا يتصرف إلا به فيه، وهو القائم بعبده، والمُمد له من عنده. وبهذا صرّح حصر الحديث المطرد المنعكس بقوله: «سَيِّدُ الْقَوْمِ خَادِمُهُمْ»(٢٠٧)، «خَادِمُ الْقَوْمِ سَيِّدُهُمْ»(٢٠٨).

ولو بسطنا في هذا الباب، لسمعت العجب العجال، وعلِمتَ أن ذلك ألذ الخطاب، وأشرف جواب وأظرف لباب، فافهم وإلا فتفهّم، وما خُفي كان أعظم.

---

(٢٠٧) رواه ابن المبارك في "الجهاد"، والسلمي في "آداب الصحبة"، والخطيب في "تاريخه".

(٢٠٨) ذكره ابن حمدون في "التذكرة الحمدونية".

[السؤال التاسع والأربعون]

وسألني: ما معنى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾(٢٠٩)؟، على ما تفهم.

فَقُلْتُ: هي شاملة للضدين العموم والخصوص، فالعموم باطنها والخصوص ظاهرها وبالعكس فإيتاء الملك العام عام لكل الأنام بحسب الانقسام، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٢١٠)، منه إذ هم من يشاء، فالمشاء عام كالملك، وهذا كمال الكرم وتمام الإفضال والنعم، فيهب ويتكرم ثم يستوهب ويتسلم، ويستقرض ويتطعم، كما قال تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾(٢١١)، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٢١٢)، «اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي».

والكل مُلكه ومِلكه، وهبه واستوهبه وتفضّل واستفضل مع الغنى المُطلق، فإيتاء الملك العام اللايق لكل أحد ثابت لا يتكرر، ومُحقق لا يُقرّر، والتخلُّق بما يمكن من أخلاق اللَّه مأمور به كما قال رسول اللَّه عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»، وقَلَّ من يفطن لمثل هذا

(٢٠٩) سورة البقرة الآية ٢٤٧.

(٢١٠) سورة البقرة الآية ٢٩.

(٢١١) سورة التوبة الآية ١٠٤.

(٢١٢) سورة الحديد الآية ١٨.

الخُلق وهو من أخلاقي، كما مَنَّ اللَّه تعالى به عليَّ، فلا أبقى لي ملكًا أصلاً أبدًا، بل أهب واستقرض سرمدًا.

فللَّه در هذا الخلق، وخصوصًا من الغني على الإطلاق الكبير الخلَّاق، لما حواه من كمال التنزل والتواضع والتسفل، إذ فيه جعل الغني فقيرًا والكبير صغيرًا والخطير حقيرًا، فواللَّه وواللَّه ما الكمال إلا للَّه، فسبحان اللَّه والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه.

وإيتاؤه للبعض بالاختصاص لا مانع منه، كما هو صريح الآية، وإليه يشير الحديث القدسي من قوله سبحانه: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» إلخ، وما في قوله: «أَطِيعُونِي أَطِعْكُمْ، وَأَجْعَلَكُمْ تَقُولُونَ: لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ».

وإيتاء الملك الخاص للخواص بالخواص الظاهر ظاهر، كما قال تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾(٢١٣)، وهو المُلك الظاهري والباطني الصوري والمعنوي، وأشرفه الباطني المعنوي الخاص وهو النبوة والملِكية والولاية، إذ به التصرُّف في غيره، وحقيقة غيره حكمًا وصورة، حتى يكون به التصرف في المُتصرف الحقيقي وهو اللَّه، كما صرَّح بذلك حديث: «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ» فهذا الملك الذي ما فوق ملك، المتصرف في

---

(٢١٣) سورة آل عمران الآية ٢٦.

المُلك والمِلك والفلك، والمالك وما ملك وعنه كان ما كان، من المتطاول في مباسطات أولي الشأن، ومنه ما مرَّ قبل هذا السؤال مما عن أبي يزيد وسليمان الديلمي قدّس سرهما، ولأرباب هذا الشأن في هذا الباب يحيّر الألباب. وعنه قُلْتُ:

إن الملــوك مــن الأنــام ثلاثــة ملـك عضـوض لا يـزال خؤونـا

والآخـر العـدل الـذي فـي حكمـه قــد صــار فيمــا بيننــا مأمونــا

وولــى مــولاه المنفــذ أمــره مـولى الملـوك وذا أعـز شـؤونا

[السؤال الخمسون]

وسألني: ما حكمة اختلاف العلماء في الأحكام من الإباحة إلى الحرمة؟، بل بالسُّنيّة بل الفرضيّة، حتى تحيّرت ألبابهم واضطرب لُبابهم، وهل الحق أن الحكم عند الله واحد أم مُتعدد؟.

فَقُلْتُ: حكمته أنه عين التربية الإلهية التي هي عبارة عن التطبيب والمداواة، ولا شك أنهما بحسب الأشخاص والعلل والأزمان والأماكن وغير ذلك، ولا شك أن الطبيب يطلق ويمنع ويلزم ويحتم ويرخص في شيء واحد، بحسب اختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان والأماكن، فكيف بطبيب الأطباء وحكيم الحكماء، وإذا كان كل من السيد مع عبيده، والوالد مع أولاده، والشيخ مع تلاميذه، والولي مع مريده، والسلطان مع أتباعه، تختلف أحكامهم معهم وآدابهم بحسب اختلافهم واختلاف أحوالهم، حتى أن ما يؤكدونه ويحتّمونه في بعض الأحوال ينعونه ويخطرونه أشد المنع، والخطر في بعضها الآخر، حتى في الشخص الواحد.

وحِكم كُل ذلك ظاهرة، وعندهم أيضًا أمور آخرة، قد تظهر وقد لا تظهر لعدم الصلاحية لها، فما بالك بسلطان السلاطين ورب العالمين، ومالك أزمة الدنيا والدين، الحكيم على الإطلاق، العظيم الذي لا ينقصه إنفاق.

كيف لا تكون أحكامه كلها عين الحكم، وحقًّا لا ريب فيها ولا سقم، وإذا كان الإنسان مركبًا من العناصر الأربعة، فهو من الجمادية إلى الملكية، تدور عليه أحكام الجميع، ويفتقر بطبعه إلى كل وضيع ورفيع، فهو مُفتقر بالاضطرار إلى جميع أحكام المليك المجيد، ومُرتكز في هوة مهاوي الاضطرار الحقيقي إلى إمداد آلاء الغني الحميد، فيُحتم عليه قبول كل الآلاء التي منها الأحكام والرضا بها، والشكر على ذلك أتم تحتم، كيف وهو متفضل عليه ابتداءًا لا بعلة ولا من قلة.

وإذا عَرِفْتَ هذا عَلِمْتَ أن الاختلاف من الآلاء الكبرى، ومن الرحمة العظمى الفخرى، وعرفت أن الكل حق، لأنه بأمر الملك الحق، فالحق متعدد بالحيثيات متحد بالكيفيات.

وبهذا يرتفع الاختلاف ويعلم أن لا خلاف، ولذا قال مولانا سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٢١٤)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ»(٢١٥).

(٢١٤) سورة هود الآية ١١٨.

(٢١٥) ذكره البيهقي في "رسالته الأشعرية".

وقال سلطان العارفين أبو يزيد قدّس الله سره المجيد: "عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدتُ شيئًا أشد عليَّ من العلم، ولولا اختلاف العلماء لهلكتُ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد".

وبهذا يتضح جواز التقليد بأنواعه سيما عند الضرورة، إذ الاختلاف من أعظم المنن، كيف وبه دفع الحرج، الذي أمتن به من جعل من الضيف الفرج، ومن الهم المخرج، فافهم هذا التحقيق، وتدبَّر ما فيه من التدقيق، ولعلك لا تجده لأحد من كل فريق، إلا لهذا الحريق الغريق، وهذا إجمال الإجمال في هذا المبحث، وتفصيل التفصيل يحتاج إلى التطويل، في هذا الزمن الذي ما تأهّل أهله، ولا للتعطيل بل للتهميل والتبطيل. وهذا ما أفاضه الحكيم العليم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم اعلم أن الشريعة عبارة عن بحر مملؤ من درر وجوهر، أو عن بر محشو من أنواع الطيب والعنبر، فكل مجتهد التمس ما رآه الأحسن، واقتبس ما هو الأجمل والأزين، لا الصواب وخطأ غيره، وإلا لوجب الجهاد، وإزالة الزيغ والإلحاد، فالكل واحد، وإن اختلف بالمشاهد.

ولذا تأدّب كلٌّ منهم مع غيره، وكمله لرؤية فضله وخيره، وعن هذا قُلْتُ:

كــل المــذاهب مــذهبي إن كــان حقًّــا لا افتــراء
إن الشـــريعة كـــل مـــا قـد جاء عـن خيـر الـورى
فمـن اصـطفى بعضًـا فمـا هـو قـد تمسـك بـالعرى
بـــل ذاك ممـــن آمنـــوا بـالبعض والـبعض امتـرى
والمـــؤمن الحقـــي مـــن بالكـــل آمـــن واشـــترى

[السـؤال الحادي والخمسون]

وسألني: ما معنى قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢١٦] الآية؟.

فَقُلْتُ: مفهومها المُتبادر الذي هو المعنى الظاهر هو التخصيص، والمعنى يجلب إليه من الثمرات والفوائد النفسية اللذيذة الأنيسة، من كل شيء جماديًا كان أو نباتيًا أو حيوانيًا جثمانيًا وروحانيًا صوريًا ومعنويًا ولو قليلاً، والأمر كذلك.

(٢١٦) سورة القصص الآية ٥٧.

فلو تدّبر لعُلم، فما من شيء من ذلك إلا ويؤتى به إلى الحرم، والعالم في ذلك كالخدم، ولا شك أن هذا من عظيم الامتنان على من ليس عنده الأغلب وخصوصًا، وتعبه على غيره، وقد كفى كثيرًا من نصبه وضيره.

وعليه لا يشكل بأن غيرهم في أرطب الثمرات وألذها وأنفسها وبلا نصب أيضًا. فإن الامتنان يكون ولو بأقلّ قليل، مع كون القليل مع الراحة والصفاء خيرٌ من كثير الكثير بعدمهما.

ألا ترى أن الفقير إذا تدبَّر في حاله وراحته وأنسه، ولو بكسرة يابسة، عرف أنه في أعظم مِنّة من الغني الملي المُتكدّر بهموم عناه ووعثاء غناه، وهذا مفهومها الظاهر.

وأما مفهومها الوضعي اللغوي الحقيقي فهو العموم، والمعنى يؤتى إليه بجميع الثمرات من كل شيء، وخالص الفوائد من كل ري، وهذا واقع أيضًا، فقد حبى اللَّه إليه من خزائن غيبه المكنون ثمرات الثمرات، وفوائد الفوائد واللذات، الكائنة في سائر الكائنات، التي منها جميع الموجودات، من المبدأ إلى غير النهايات، وهي سيد السادات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى هذا فالامتنان بأعظم المنن، وأشرف الآلاء في كل زمن، فهذا هو الامتنان، فيا لله دره من إحسان، ويا طوبى لأهله به وعلو الشأن، وسبحان المُتفضّل سبحانه.

[السؤال الثاني والخمسون]

وسألني: ما حقيقة العلم وما معناه؟، حتى أطال الناس في عدِّ بعض أنواعه وعظمها، كما قال العلماء في علوم القرآن: "إن تحت كل كلمة أربعة آلاف علم، بحسب ظهرها وبطنها وحدها ومطلعها". وقال الأولياء: في علومه شيئًا كثيرًا.

فمنه ما قال العارف الشعراوي في [الجوهر المصون] في أمهاته علومه: "إن عدتها كما ذكر الشيخ ابن عربي في الباب الثاني والعشرين من [الفتوحات] مائة ألف نوع وستمائة نوع، وتحت كل نوع من العلوم ما لا يحصي في الدفاتر عدده إلا اللَّه تعالى".

ومنه ما قال عن أخيه الشيخ أفضل الدين: "استخرجتُ بحمد اللَّه تعالى من علوم سورة الفاتحة مائتيْ ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة وتسعين علمًا. قال: وهي أمهات علومها، وأما فروعها لا تنحصر لبشر".

ومنه ما قاله المولى الوليّ سيدنا عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: "لَوْ شِئْت لَأَوْقَرْتُ لَكُمْ سَبْعِينَ بَعِيرًا مِنْ مَعْنَى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَوْ مَعْنَى البَاءِ أَوْ مَعْنَى النُّقْطَةِ"(٢١٧).

(٢١٧) ذكره أبو طالب المكي في "قوت القلوب"، والغزالي في "إحياء علوم الدين".

وقال العارفُ الحضّار السيد عمر المحضار(٢١٨) قدّس اللَّه سره: "لو شئتُ لأوقرتُ لكم مائة ألف بعير من معنى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾(٢١٩) الآية".

ومنه ما قال الشعراوي في [الجواهر]: "وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه اللَّه يقول: من دخل الخلوة بالصدق فتح اللَّه عليه من العلوم اللدنية ما يرى به أن جميع ما فسّره المفسرون وشرحه الشارحون للقرآن والحديث، وكتب المُجتهدين ومُقلّديهم إلى يوم الدين، لا يجئ عشر معشار معنى حرف واحد من حروف القرآن الكريم، فضلاً عن الكلمة أو الآية، وأن ذلك جميعه كالنقطة من البحر المحيط، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾".

ومنه ما قاله في [الجواهر] أيضًا: "ثم لا يخفى عليك يا أخي أن علوم الخلوة لا تنحصر، كما أشرنا إليه فيما سبق، فكل علم منها لا يدرك له قرار، فلو أن العارف باللَّه مكث يتكلّم في كل علم منها، إلى أن تقوم الساعة لم تنفد معانيه، فلا تظن يا أخي أن علوم الكشف

---

(٢١٨) هو الإمام عمر بن عبد الرحمن السقاف الحسيني التريمي الشافعي، من أعلام السادة آل باعلوي، ولد وتوفي بتريم سنة ٨٣٣هـ. أسس وتولى نقابة آل باعلوي. بنى مسجد المحضار بتريم.

(٢١٩) سورة البقرة الآية ١٠٦.

تنفذ معانيها كعلوم النظر والفكر". ومنه قول بعضهم: "علومي تملأ ما بين الفرش والعرش". ونحو ذلك.

فَقُلْتُ: حقيقة العلم ومعناه هي بيان كل شيء وأحواله وأحكامه على ما هو عليه، وذلك لا حدّ ولا عدّ ولا بداية ولا نهاية، كيف ومنه كلمات اللَّه التي قال فيها سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[٢٢٠]، ولذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٢١]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. وقال بعضهم في علم الظاهر الذي هو قطرة من بحور علم الباطن، فقال رحمه الله تعالى[٢٢٢]:

مَا حَوى العِلْم جَمِيعًا أَحُدٌ   لا وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَةْ
إِنَّمَا الْعِلْمُ بَعِيدٌ غَوْرُهُ   فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شيءٍ أَحْسَنَهْ

(٢٢٠) سورة الكهف الآية ١٠٩.

(٢٢١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٢٢٢) البيتان منسوبان إلى الإمام الشافعي.

بل أقولُ: ما أحاط أحد سوى اللّٰه تعالى بشيءٍ من العلم، إلا إحاطة إدراك من بعض الوجوه، لا إحاطة حقيقية من كل الوجوه، ولا النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن قالوا: "أنه أُعطي علم كل شيء في آخر عمره"، فإنما أُعطي إجمالاً في صورة تفصيل، وتفصيل التفصيل للملك الجليل، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[٢٢٣].

إذ لا وسع لقدرة البشر للإحاطة بجزء لا يتجزى، ولو من حجر ومدر، فكيف بجميع الأجزاء، إذ علم كل شيء جزء يحمل أوقارًا من أسفار، إذ كل جزء حاوٍ ما لا يكيّف من الأسرار، إذ هو مُمد ومُستمدّ من جميع الأشياء الحسية والمعنوية، من مبدأ وجوده إلى أبد الآباد، مع تجلي اللّٰه له في الأنفاس، بما لا يحيط به اقتباس، وعلم ذلك كذلك ليس إلا في قدرة اللّٰه تعالى.

فإن قُلْتَ: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم بما به اللّٰه له علّم، بعد تَحلّيه بالصفات الإلهية، المُشار إليه بقوله في أشرف الأحاديث القدسيَّة بقوله: «فَبِي يَنْطِقُ وَبِي يَسْمَعُ» إلخ، فيكون علمه بالقدرة الإلهيَّة.

---

(٢٢٣) سورة الملك الآية ١٤.

قُلْتُ: لا شك أنه كذلك، لكن إحاطة الصفات وهي في محلها ليس كهي في غير محلها، إذ هو مطلق الإطلاق وغيره مُقيّد الأخلاق، فليس له عظيم العلم والإنفاق، وبهذا أمتاز القديم من الحادث العديم.

[السؤال الثالث والخمسون]

وسألني قائلاً: لا شك أن الوجود أي الخَلْق أبديّ لا أزليّ، لبقاء الجنان والنيران والعرش والكرسي وغير ذلك، فله ابتداء ولا انتهاء، وغير النهاية معلوم الدراية، فكيف الابتداء وكم ومتى؟.

فَقُلْتُ: أما الكيفيَّة فأُوضحها فيما رواه عبد الرزَّاق عن جابر رضي اللَّه عنه قال: «سألتُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم: عن أول شيء خلقه اللَّه تعالى؟، فقال: هو نور نبيك يا جابر، خلقه اللَّه ثم خلق فيه كل خير، خلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحُب اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة، ثم

جعله أربعة أجزاء: فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء، وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء: خلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنى عشر ألف سنة، ثم نظر اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إليه فترشح النور عرقًا، فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفًا وأربعة آلاف قطرة من النور، فخلق اللَّه سبحانه من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفّست أرواح الأنبياء فخلق اللَّه من أنفاسهم نور الأولياء والشهداء والسعداء والمُطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري، والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السماوات السبع من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والشهداء والصالحون من نتائج نوري، ثم خلق اللَّه اثنى عشر حجابًا، فأقام اللَّه نوري وهو الجزء الرابع، في كل حجاب ألف سنة، وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة والرأفة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فعبد اللَّه ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج

النور من الحجب ركبه اللَّه في الأرض، فكان يضيء منه ما كان بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المُظلم، ثم خلق اللَّه من الأرض آدم، فركب في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، ومن طيب إلى طاهر، إلى أن أوصله اللَّه إلى صلب عبد اللَّه بن عبد المطلب، ومنه إلى رحم أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا، فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين، وقائد الغر المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر».

كذا نقل الحديث الكازروني(٢٢٤) في [سيرته]، وابن عربي وغيرهما.

ولا مانع وقد ذكر كثير من العلماء انشقاق الأشياء منه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجمالاً، وبسّطه بعض الأولياء فيطلب في مظانه. وأما الكمية فاللَّه أعلم بعَدِّها وحصرها وحدِّها للاختلاف والاضطراب، الذي يعظم في عقول أولي الألباب، ويصغر في قدرة العظيم الوهَّاب.

---

(٢٢٤) هو الشيخ ظهير الدين علي بن محمد الكازروني ولد عام ٦١١ هـ في بغداد، أصل فارسي من أهل مدينة كازرون بفارس، تتلمذ على يد كبار علماء الحديث والفقه واللغة في بغداد، سجل الحوادث الغزو المغولي لبغداد كلها في كتب تاريخية عدة. توفي في بغداد سنة ٦٩٧هـ. له مؤلفات كثيرة.

فقال العلَّامة بَحْرَق(٢٢٥) في [حلية البنات والبنين]: "ذكر أهل التواريخ أن أول ما خلق الله سبحانه وتعالى نور نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من قبل أن يخلق آدم بمائة ألف عام، ثم خلق من ذلك جميع المخلوقات".

وفي حديث ابن القطان(٢٢٦): «كنت نورًا بين يدي ربي، قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»(٢٢٧). وفي [تاريخ القاضي محمد بن سعيد الحنفي(٢٢٨)]: "وفي رواية: أن خلق النور المحمدي كان قبل جميع الأشياء بألف ألف سنة وستمائة ألف وتسعمائة ألف سنة".

وفي [التشريفات](٢٢٩): عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال: كم

---

(٢٢٥) هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الحضرمي الشافعي، المشهور ببَحْرَق، الفقيه الأديب، ولد بحضرموت سنة ٨٦٩هـ، ولي قضاء بالشحر، رحل إلى الهند فأكرمه السلطان مظفر وعظّمه، وتوفي في أحمد أباد سنة ٩٣٠هـ. له مصنفات عدة منها "حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار".

(٢٢٦) هو أبو الحسن علي بن محمد القطان الفاسي المشهور بابن القطان، ولد بفاس سنة ٥٦٢هـ وتوفي سنة ٦٢٨ هـ، من حفاظ الحديث النبوي ومحققيه، قرطبي الأصل، أقام زمنًا بمراكش، وكان مقربًا من سلاطين دولة الموحدين، من مؤلفاته: "بيان الوهم والإبهام الواقعين في كتب الأحكام"، "النظر في أحكام النظر"، "رسالة في حديث عاشوراء".

(٢٢٧) ذكره العجلوني في "كشف الخفا" وعزاه لابن القطان في "الأحكام".

(٢٢٨) لعله محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكيّ، شمس الدين، المعروف كوالده بعقيلة: مُؤرخ، من المشتغلين بالحديث. من أهل مكة، مولده ووفاته فيها. من كتبه "لسان الزمان" في التاريخ، رتبه على حوادث السنين إلى سنة ١١٢٣ هـ، وغيره. توفي سنة ١١٥٠هـ.

(٢٢٩) هو كتاب "التشريفات في الخصائص والمعجزات"، قال صاحب "السيرة الحلبية": لم أقف على اسم مؤلفه.

عمّرت من السنين؟، فقال: واللّه لا أدري غير أن كوكبًا في الحجاب الرابع يظهر في كل سبعين ألف سنة مرة، فرأيته اثنين وسبعين ألف مرة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا جبريل، وعزة ربي أنا ذلك الكوكب»[٢٣٠].

[السؤال الرابع والخمسون]

وسألني: ما حكم القُبع[٢٣١] الطويل الذي يلبسه أكابر السادة العلويين وغيرهم من العارفين؟.

فَقُلْتُ: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَبِيحٌ»[٢٣٢].

وقد لبس القلنسوة الطويلة كثيرٌ من أكابر العارفين من أهل ما وراء النهر والعراق واليمن والروم ومصر والهند وغيرهم، وإن تفاوتوا فيها وتعارفوا ذلك، ولا إنكار على العُرف إلا إذا خالف حُكمًا مُحتمًا شرعًا.

---

(٢٣٠) رُوي في "السيرة الحلبية" عن سيدنا علي بن الحسين رضي اللّه عنهما. وذُكر في "روح البيان".

(٢٣١) هو غطاءٌ للرَّأس يكون من الثَّوب نفسه كقُبْع البُرنس أو غيره كالقَلَنْسُوَة.

(٢٣٢) رواه مالك في "الموطإ"، وأحمد في "مسنده"، وأبو داود الطيالسي في "مسنده"، والبزّار في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير" و"الأوسط"، والحاكم في "المستدرك"، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة"، والبيهقي في "الاعتقاد"، والخطيب في "تاريخه".

فإن الأشياء بحسب العُرف وقد أُمرنا بذلك، إذ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾(٢٣٣)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»(٢٣٤)، ومنه العُرف، فإذن لا نكر ولا قبح ولا خسر، فكيف إذا كان من العارفين، وكل أمورهم مبنية على الحكم والأسرار، ومنتجة للصفاء والأنوار، كما قيل:

ليس على عارف انتقاد   ولا اعتراض ولا ملام
لكونه عارفًا بصيرا   فكل أفعاله تمام

ومنه قيل: "العارف لا يُعرّف"، وأقولُ: "والباصرُ لا يحرّف"، وقالوا: "لو هبط العارف من سماء الحقيقة، لسقط على أرض الشريعة والطريقة". وفيها أسرار يعرفها أربابها، ومن كشف له نقابها.

أيها المنكر زي العارفين   لا تقل ذا العُرف نكرًا يا غبين
إنهم من عين عرفان الهدى   وبحار العلم كانوا الغارفين

واعلم أنه لا مُنازعة في العُرف، كما أنه لا مُشاحة في الاصطلاح، وقد تعارف كل من العالم بزي غير زي الآخر من العلماء والأولياء والملوك والأشراف والعوام، ولا منع ولا حجر ولا نهي ولا حظر، إذ الأمور بمقاصدها، فكُلٌّ بمقصده ونيّته ومعقده.

---

(٢٣٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٢٣٤) روى نحوه الديلمي في "الفردوس"، وذكره السخاوي في "المقاصد الحسنة" وقال: عزاه شيخنا لمسند الحسن بن سفيان.

فهذا الزي من أفراد تلك الأزياء، وهو شعار أهله كغيره، ولا يبعد أن تكون قديمة، إذ في [القاموس]: "والطُّرْطُورُ الدقيقُ الطويلُ، والقَلَنْسُوَةُ تكونُ كذلِكَ". وظاهره أن تكون من زي العرب أيضًا لا مخصوصة بالعجم، وعلى كُلٍّ فلا منع ولا خفض ولا رفع. وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبس القلنسوة بلا عمامة وبها، ولا يبعد أن يكون غالب قلانس الناس في غالب البلاد غير عربية والله أعلم.

نعم قد يُقال أن لبسها من السُّنَّة والآداب المُستسنة، لأنها من سُنن كثير من أكابر العارفين، الذين أمرنا بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، إذ هم من الخلفاء الراشدين المهديين، الذين قال فيهم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسَنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٢٣٥) الحديث. إذ لا تخصيص للخلفاء الراشدين بالأربعة إلا عُرفًا، بل نفس الحديث مصرّح بالعموم، كما لا يخفى على من له أدنى مفهوم.

---

(٢٣٥) رواه أحمد في "مسنده"، والدارمي في "مسنده"، وابن ماجه في "سننه"، وأبو داود في "سننه"، والترمذي في "سننه"، والبزّار في "مسنده"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم في "المستدرك"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "سننه".

[السؤال الخامس والخمسون]

وسألني قائلاً: قد بلغني أسئلة كثيرة من علماء الرافضة وبعض أهل السُّنّة عن حُكم قتال الرافضة وسبْيهم وأخذ أموالهم، مع إنهم في الظاهر مُسلمون ويصلون ويصومون ويستقبلون ويحجُّون، وتحيّر كثير من العلماء في ذلك، وجواب بعضهم بما ليس شاف أو بشاف غير واف، فما الجواب الشافي وما الحكم الوافي؟.

فَقُلْتُ: الظاهر من عقائدهم المعروفة في معاقدهم ومقاعدهم أنهم من الكفار، بل أشد عند أولي الأبصار، إذ جلهم بل كلهم إلا ما ندر لا يخلو من أحد هذه الوجوه الأربعة وهي: أن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الإله، أو هو النبي، أو أن جبريل غَلط بالوحي، أو بغض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيظهم لهم، وكل ذلك كفر بلا ريب وفجور كبير العيب.

أما الثلاثة الوجوه الأُوَل فلا خلاف في كفر مُعتقدها ومُنتحلها ومُنتقدها، وأما الوجه الرابع فلا شك أن البُغض للصحابة والحط عليهم طعنٌ في الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك كفر باتفاق، وبيان ذلك أنهم أمنة شرع الله وحملته، والمُبلّغون دينه عن رسوله بلا شك لأنه الواقع، ولاختيار الله لهم ذلك، فمن طعن فيهم فقد طعن في علم الخبير العليم وحكم العزيز الحكيم.

كيف يجعلهم حَملة الشرع المُبلّغين، وهم عند هؤلاء الأشقياء من السفهاء بل الكافرين، تعالى عن ذلك وتقدّس، ووجه الطعن في الرسول وجه الطعن في المُرسل، ومن سفه حكم اللَّه ورأي الرسول، استحق السيف المسلول والسهم المفتول، وسبي الرقاب وأخذ المنقول والأعتاب، إذ هم أشد من الكفّار وأغلظ من الفُجّار.

وإن قُلْتَ: كيف يُعلم هذا الاعتقاد بلا استعلام ولا انتقاد؟.

فأقُولُ: قد علم قطعًا معرفتهم بهذا العلم لهم، وامتيازهم واحتيازهم وانفرادهم واعتزالهم عن أهل السُّنّة وبعدهم عنهم وبُغضهم لهم، وعدواتهم وأفعالهم الشنيعة عند الظفر بهم، وغير ذلك مما شاهده الكثير منهم في ديارهم وخلواتهم، ومن اطلع على شيء من علومهم وأبحاثهم وحقائقهم ودقائقهم، قطع بأنهم الذين اتخذوا دينهم هزوًا ولعبًا. وقال إن ما قال اللَّه وقال رسوله، ليس عندهم إلا كذبًا، فنعوذ باللَّه منهم، ثم نعوذ باللَّه، فلقد صدق القائل: "إنهم أخس من اليهود والنصارى، إذ هم يُعظّمُون حواري أنبيائهم بخلافهم"، وأقولُ أيضًا:

ويعظّمُون اللَّه ورسلهم بخلافهم فمن أولى بالسبي والسيف
من أولى هذا الفجور والحيف

وهذا ما ظهر، لمن بذل الجهل مهر، وبجهل الجهل عبّر، وعلى هداه اللَّه أكبر.

[السؤال السادس والخمسون]

وسألني: ما حُكم تشييد المساجد وتزيينها، وتنميق القبور وتحسينها، وزخرفة هاتيك وتلوينها؟.

فَقُلْتُ: ما كان من الشعائر فذاك فيه عظيم المفاخر، وكبير التقوى وجميل المظاهر، إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(٢٣٦)، والشعائر ما تشعر بصاحبها، فتعظيمها تعظيمه، فتعظيم المساجد وضرائح الأنبياء والأولياء الأماجد تعظيمٌ لمولاهم، وتبجيل لمن أولاهم، واستجلاب لرضا مُرتضاهم، وطلب لمثله في حماهم.

وَعَنْ هَذَا: «قَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكُمْ قَدْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى. قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ. بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»(٢٣٧). كما في البُخاري، فمن قوله مثله يخرج كل ذلك وأعظم من ذلك، ويدخل الزخرفة بأعظم الجواهر والمعادن والمفاخر، بطلب نيل المثل في اليوم الآخر.

---

(٢٣٦) سورة الحج الآية ٣٢.

(٢٣٧) رواه مسلم في "صحيحه". وأبو عوانة في "مستخرجه"، والبيهقي في "سننه".

فإن قُلْتَ: ما تقول فيما ورد في ذلك من النهي والزجر والردع البغي؟.

قُلْتُ: ذلك فيما لا يُبتغى به وجه اللَّه، ولم يُفعل لتعظيم اللَّه، وفي ابتداء الأمر لئلا يعبد من دون اللَّه، وأما عند ظهور الدين واستيلائه على قلوب المؤمنين، وقصد وجه رب العالمين، فلا نهي بل يُطلب أبلغ المبالغة، فإن الضعيف يعامل بقدره، والقوي يتطاول بحسب طوله ونظره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾(٢٣٨). وكما حضَّ على ذلك بقوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٢٣٩).

وعن هذا شَيّدت وزَخرفت وزَيّنت وحَسّنت سادات السلف والخلف وأكابر العلماء والأولياء والأمراء ممن خَلَف وسَلَف، فتنبّهُوا يا عميان، وما شاء اللَّه كان.

نعم، ينبغي أن يكون التحسين والزخرفة والتزيين على وجه الكمال، لئلا تشغل الخاطر والبال، وتلهي عن شهود ذي الجمال، ومراقبة ذي الجلال، فتُوقع الوبال، وتُوصل للنكال.

---

(٢٣٨) سورة الطلاق الآية ٧.

(٢٣٩) سورة آل عمران الآية ٩٢.

[السؤال السابع والخمسون]

وسألني النَّفْسُ: أُريدُ منك قولاً نافعًا جامعًا، مانعًا فاصلاً، قاطعًا خافضًا رافعًا.

فَقُلْتُ: أيتها النَّفْسُ إن كُنتِ الأمَّارة فأعوذُ باللَّه منك، وإن كُنتِ اللوَّامة فأستعينُ به عليك، وإن كنت المُطمئنة وما، فالتجئ إلى الله من العمى، وأرجع إليه في كل ما، فإنه لا حنَّان سواه، ولا منَّان إلا إيّاه، وأرجو أن تكوني مُستفيدة، ومن الخير مُستزيدة، وعن الشر بحوله بعيدة.

فاعلمي هداكِ اللَّه، ووفّقكِ لما فيه رضاه، أن الشيء هو الموجود، والموجود هو الثابت الوجود، والوجود ضد القدم، وهو قديم وحادث وواجب ومُمكن، فالواجب ما لا يُتصّور عدمه، وهو القديم الباقي الدائم الأزلي الأبدي السرمدي، الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، كان ولم يكن شيء، ويكون ولم يكن شيء، وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، رب الأشياء وخالقها، ومُوجدها ومُمدّها ومالكها ورازقها.

والمُمكن ما يُتصوّر عدمه، وهو الحادث الفاني أبديًا كان أو لا، الذي لم يكن فكان، وحواه الزمان والمكان، وأوجده المليك الديَّان، وأفقره إلى ما يكون وما كان، وأمدّه بأنواع الإمداد بالامتنان، وهو

متحرك وساكن وصامت وناطق وحيوان وجماد ونبات، وآيات بيّنات، وله ذوات وأسماء وصفات، وشؤون وأقوال وحالات، وكل شيء من ذلك بحسبه، وعلى مقداره ونسبه.

كما أن الواجب تعالى شأنه كذلك، فذاته وأسماؤه وصفاته وأفعاله وأقواله وشؤونه بحسبه، وعلى ما يليق بقدره العظيم ونسبه، فـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ مُطلقًا، حتى في الإطلاق فلا ذاته كذاتنا، ولا صفاته ولا أفعاله ولا أقواله ولا أحواله ولا شؤونه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

فإذا عَلِمْتِ ذلك فاعلمي أن كلما ورد بخلافه كتابًا أو سُنّة أو أثر عن سلف أو خلف من أولياء وعلماء، مما يُفهم المشابهة في الذات والأسماء والصفات والأقوال والأفعال والأحوال، من اتحاد أو حُلُول، أو طلوع أو نزول، أو كَيْف أو تجسيم، أو كمٍّ أو تكليم، فهو بحسب ذلك المقام، وعلى ما يليق بذلك المرام.

وإذا فَهمتِ هذا ما احتجتِ إلى التأويل، في جميع التقاويل، وأمنتِ ذلك وقُلتِ: اللَّهُ أعلم بحقيقة ما هنالك، إذ ليس للعقل فيه مجال، لعدم دخوله في مدرك الرجال، وإذا صرفنا ذلك عن ظاهره، فقد تحكمنا على قائله، وتأمرنا على من هو أعلم بباطنه وظاهره، وأدرى بمراده في أوله وآخره، وهذا مذهب السلف وأجلاء الخلف،

وهو الحق الصواب الأجل الأكمل الأعظم، كما صرّح بذلك تعالى شأنه بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾(٢٤٠) الآية.

وإذا عَلِمْتِ هذا فمن إفراد هذه الكلية الكلام والحي والإلهام والنفث في الروع، فكُلٌّ منها يكون من الواجب والمُمكن حسًّا ومعنًى على حسب كل منهما، فلا ينكر كلامه تعالى ووحيه وإلهامه ونفثه، وإلقاؤه في روع كل أحد وقلبه على حسب المقام والمراد والمرام، كما يوضّح ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(٢٤١). وخطابه لأيوب وله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأحاديث القدسية ونحو ذلك ومنه: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾(٢٤٢)، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢٤٣)، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(٢٤٤)، ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾(٢٤٥)، إلى غير ذلك من الكتاب والسُّنّة.

(٢٤٠) سورة آل عمران الآية ٧.

(٢٤١) سورة النساء الآية ١٦٤.

(٢٤٢) سورة النحل الآية ٦٨.

(٢٤٣) سورة النجم الآية ٤.

(٢٤٤) سورة الزلزلة الآية ٥.

(٢٤٥) سورة فصلت الآية ١١.

وإذا لم يكن كذلك أين يروح قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[٢٤٦]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾[٢٤٧] يبشرونها ويبشرونها، وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا﴾[٢٤٨] الآية. وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»[٢٤٩]، إلى غير ذلك مما لا يحصى، ولا ينال فيستقصى.

نعم الوحي بالإرسال مختص برُسل ذي الجلال بالرسالة والكمال. وإذا قُلنا: إن شأن كل أحد بحسبه، فوحيه كذلك ويعرفه من هنالك، فمن ذاق عرف ومن دام غرف، ومن لا لا شمّ ولا انحرف.

وهكذا شؤون كل مُمكن مع مثله، وكل شكل يُضم إلى شكله، إذ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ مِنْ جَلِيسِهِ»[٢٥٠]، وقال سبحانه: «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي»[٢٥١]، وقال: «هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ»[٢٥٢]، وقال:

(٢٤٦) سورة الشورى الآية ٥١.

(٢٤٧) سورة يونس الآية ٦٢-٦٣.

(٢٤٨) سورة فصلت الآية ٣٠.

(٢٤٩) ذكره الشوكاني في "فتح القدير".

(٢٥٠) ذكره ابن عبد البر في "التمهيد".

(٢٥١) رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه"، وأحمد في "الزهد"، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "شعب

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[٢٥٣]، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾[٢٥٤]، وقال: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» الحديث، إلى غير ذلك مما هنا وهنالك.

فاعلمي هذا تفهمي منه أن لكل مقام مقام، ولكل مقال رجال، ومن عرف سرح وجال، وركض في المجال، وسبح في التجوال، وكل في فلكه يسبح، ربح أو لم يربح.

تتمةٌ: في [القاموس]: "الوَحْيُ الإِشارةُ والكِتابَةُ والمَكْتُوبُ والرِّسالَةُ والإِلْهامُ والكَلامُ الخَفِيُّ، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ، والصَّوْتُ يَكُونُ في النَّاسِ وغَيْرِهِم".

فتيقظي أيها النفس، واعلمي حكم من قال: حدّثني قلبي عن ربي، وقال لي وقلتُ له، وكلّمني الجماد والنبات، وخاطبتني الآيات البيّنات، وقال الجمع والشتات هيهات هيهات بالعبارات أو الإشارات، و﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢٥٥]، إذا شاء ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾[٢٥٦]، ويمنح مِلكه ممن يشاء.

الإيمان"، وابن عساكر في "تاريخه".

(٢٥٢) رواه الديلمي في "الفردوس". قال العراقي: رواه الدارقطني في "غرائب مالك" وابن لال.

(٢٥٣) سورة الحديد الآية ٤.

(٢٥٤) سورة النساء الآية ١٢٦.

(٢٥٥) سورة المؤمنون الآية ٨٨.

(٢٥٦) سورة البقرة الآية ٢٤٧.

واعلمي أن الملك بضم الميم وكسرها: هو السوى أي ما سواه تعالى من المخلوقات حسًّا ومعنى ظاهرًا وباطنًا، فإن ضُمّ فمعناه سلطانه ومحل تصرفه وقهره، وإن كُسِرَ فمعناه المملوك حقيقة لمالكه، وهذا معناه العام، وقد يُراد الخاص.

والآية مُطلقة، ولا مانع إذ مولاه الفرد الجامع، والمُعطي المانع، والعظيم الواسع، ومن جال في بحار معاني هذه الآية، وفتح له الفتّاح بعض أبوابها، والنهاية نال من ذلك غاية الغاية، من كل بداية ونهاية، وأرى أن ذلك خاص بسيد أولي العناية والرعاية، وهو سيدنا مُحَمَّد الملحُوظ سرمدًا بعين الاعتناء والعناية.

صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ إِلَيْهِ أَجْمَعِينَ.

فقد تمَّ نسخُ هذه [الأسئلة المرضيَّة والأجوبة السنيَّة العليَّة للذات المرغنيَّة]، عليها من الله توالي الإمدادات الربانيَّة، في كل لحظة وبكرة وعشيَّة، وذلك على يوم الأحد لعله ٢٠ شهر شعبان الكريم، سنة ١٢٤٥هـ، في محروسة مكة المشرفة، زادها الله تعالى شرفًا، في رباط ابن سليمان غفر الله له ولراقمها ولمالكها ووالديهم ولجميع المسلمين. وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، آمين.

فهرس "الأسئلة النفسيّة"

ثبت المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. صحيح البخاري.

٣. صحيح مسلم.

٤. مسند أحمد.

٥. موطأ مالك.

٦. سنن النسائي.

٧. سنن أبي داود.

٨. سنن الترمذي.

٩. سنن ابن ماجه.

١٠. سنن للبيهقي.

١١. مسند أبي حنيفة.

١٢. مسند الشافعي.

١٣. مسند أبي داود الطيالسي.

١٤. مصنف عبد الرزاق.

١٥. تفسير عبد الرزاق.

١٦. سنن سعيد بن منصور.

١٧. مصنف ابن أبي شيبة.

١٨. فضائل الصحابة لأحمد.

١٩. الزهد لأحمد.

٢٠. مسند الدارمي.

٢١. الأدب المفرد للبخاري.

٢٢. السُّنة لابن أبي عاصم.

٢٣. مسند البزَّار.

٢٤. عمل اليوم والليلة لابن السني.

٢٥. مسند أبي يعلى.

٢٦. مستخرج أبي عوانة.

٢٧. نوادر الأصول للحكيم الترمذي.

٢٨. المعجم الأوسط للطبراني.

٢٩. المعجم الصغير للطبراني.

٣٠. المعجم الكبير للطبراني

٣١. مسند الشاميين للطبراني.

٣٢. مكارم الأخلاق للطبراني.

٣٣. الدعاء للطبراني.

٣٤. العظمة لأبي الشيخ.

٣٥. سنن الدارقطني.

٣٦. رؤية الله للدارقطني.

٣٧. غرائب مالك للدارقطني.

٣٨. المستدرك على الصحيحين للحاكم.

٣٩. فضائل فاطمة للحاكم.

٤٠. آداب الصحبة للسلمي.

٤١. حلية الأولياء لأبي نعيم.

٤٢. معرفة الصحابة لأبي نعيم.

٤٣. دلائل النبوة للبيهقي.

٤٤. شعب الإيمان للبيهقي.

٤٥. الاعتقاد للبيهقي.

٤٦. الرسالة الأشعرية للبيهقي.

٤٧. الأربعين الصغرى للبيهقي.

٤٨. الأسماء والصفات للبيهقي.

٤٩. الزهد الكبير البيهقي.

٥٠. الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي.

٥١. تاريخ بغداد للخطيب.

٥٢. تاريخ ابن عساكر.

٥٣. شرح السُّنَّة للبغوي.

٥٤. الجهاد لابن المبارك.

٥٥. مسند الشهاب للقضاعي.

٥٦. مسند عبد بن حميد.

٥٧. صحيح ابن حبان.

٥٨. الرسالة القشيرية للقشيري.

٥٩. الأحكام لابن القطان.

٦٠. الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوي.

٦١. الأشباه والنظائر لابن نجيم.

٦٢. التذكرة الحمدونية لابن حمدون.

٦٣. التشريفات في الخصائص والمعجزات.

٦٤. التمهيد لابن عبد البر.

٦٥. تفسير ابن كثير.

٦٦. تفسير الرازي.

٦٧. تنبيه الغافلين للسمرقندي.

٦٨. لطائف الإشارات للقشيري.

٦٩. إحياء علوم الدين للغزالي.

٧٠. مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن لابن الجوزي.

٧١. السيرة الحلبية لعلي بن إبراهيم الحلبي.

٧٢. السيرة النبوية للكازروني.
٧٣. الطبقات الكبرى لابن سعد.
٧٤. الفتوحات المكية لابن عربي.
٧٥. القاموس المحيط للفيروزآبادي.
٧٦. القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي.
٧٧. الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين للغزالي.
٧٨. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي.
٧٩. المحيط البرهاني في الفقه النعماني لابن مازه البخاري.
٨٠. المدخل لابن الحاج.
٨١. المعجم المختص لمرتضى الزبيدي.
٨٢. المقاصد الحسنة للسخاوي.
٨٣. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني.
٨٤. النصيحة الكافية لأحمد زروق.
٨٥. تاريخ القاضي محمد بن سعيد الحنفي.
٨٦. جامع كرامات الأولياء للنبهاني.
٨٧. جواهر العقدين للسمهودي.
٨٨. حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح.
٨٩. حلية البشر لابن البيطار.
٩٠. حلية البنات والبنين لمحمد بن عمر لبَحْرَق.
٩١. ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري.
٩٢. رسائل المقريزي.
٩٣. روح البيان لإسماعيل حقي.
٩٤. سبل السلام للصنعاني.
٩٥. الدلائل.

٩٦. شرح مقدمة الوصول لإبراهيم المواهبي.
٩٧. فتح القدير للشوكاني.
٩٨. فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب الحنبلي.
٩٩. قوت القلوب لأبي طالب المكي.
١٠٠. كشف الخفا للعجلوني.
١٠١. كنز العمال للمتقي الهندي.
١٠٢. المنن الكبرى للشعراني.
١٠٣. الجواهر والدرر للشعراني.
١٠٤. الجوهر المصون والسر المرقوم للشعراني.
١٠٥. الطبقات الكبرى للشعراني.
١٠٦. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشعراني.
١٠٧. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.
١٠٨. السر العجيب في مدح الحبيب للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١٠٩. الحِكم للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٠. التحفة المرسلة للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١١. العقد المنظم للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٢. النخبة المهداة للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٣. بحر العقائد للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٤. جواذب القلوب للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٥. جواهر القلائد للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٦. ذات الجنب في معنى الذنب للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٧. سُباعيات الحِكم للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٨. كنز الفوائد للسيد عبد الله الميرغني المحجوب.
١١٩. فيوض البحور المتلاطمة للسيد محمد عثمان الميرغني الختم.